حنين

حنين
مجموعة قصصية
فارس أحمد طه
الطبعة الأولي .. ٢٠١٣

الغلاف : أسامة علام
اخراج داخلي : الحلم للدعاية والاعلان

رقم الإيداع : ٢٠٣١١/٢٠١٣
الترقيم الدولي : 978-977-6412-40-8

الحلم للنشر والتوزيع
٤ شارع الأشراف من شارع مؤسسة الزكاة - المرج
محمول : 01141824562
dar_el7elm@hotmail.com

حنين

مجموعة قصصية

فارس أحمد طه

قبل أن تقرأ

الكاتب الروائي ليست مهمته أن يطلق إبداعه كي يستمتع به القراء وتسير الحياة هكذا، كل كاتب لا بد أن يعبر عن المرحلة الزمنية التي يعيش فيها ويعبر عنها من خلال أعمال أدبية ممتعة ومفيدة للقارئ، فالهدف ليس فرديا، بل هدف له أكثر من قيمة.

المجموعة القصصية التي بين يديك الآن هي عبارة عن قصص حقيقية ممزوجة بالخيال؛ فهذه القصة تناقش قصصا واقعية تعبر عن هذا الجيل من خلال رؤيتي والمرحلة التي نعيش بها، ويضاف إليها الكثير والكثير من الخيال من أجل المتعة الأدبية.

لا تحاول أن تحكم على العمل من قصة، ربما تجد قصة واحدة تتشابه معك وتبدأ في التفكير مرارا وتكرارا وتجد أن هذا الكاتب يتحدث عنك وتبدأ في الملاحظة وتعيد ترتيب أفكارك وتساعدك على التقدير الجيد أو توخي الحذر.

ولا بد أن أشكر كل من أسهم في إبراز هذا العمل مطبوعا، خاصة الأستاذة مريم خطاب فقد ساهمت في مراجعة الكتاب وهو لا يزال في مراحله الاولي .

فارس أحمد طه

حنين

ما أروع حالة الصمت والهدوء يضاف إليهما الراحة والسعادة، خلطة سحرية من الصعب أن نجدها في هذه الحياة القاسية، لا بد أن تعمل مهما كان عمرك حتى تحصل على ما تريد وربما تجد ما لا يسرك في العمل.

تبدأ من جديد في عمل آخر يحل عليك التعب، وما المقابل؟ قليل من المال، لكن السعادة الحقيقية التي تريدها غير متاحة.. كثيرون يعتبرون أن السعادة في المال أو الراحة أو الصمت.. مع مرور الوقت وبقليل من التدبر والفهم نعرف أنه لا شيء يفوق الحب؛ فربما حب ليلة واحدة يكفينا أن نعيش على ذكراه خير من أن نكون طوال الدهر بلا قلب يعشق وبلا حبيب نرتاح لسماع صوته.

ومع أن الحب هو أول طريق السعادة، لكنه أحيانا ما يكون نهاية حياتك الجميلة وتبدأ فصول من العذاب مع النفس وربما يأسرك من تحب بقلبه وتصبح شارد الذهن دائما لا تعرف ماذا يحدث.. الحب يعلّم ويترك أثرا في قلوبنا، حتى الوحوش والثائرون لديهم قلوب تعشق وعيون تدمع.

* * *

كغيري من الشباب المجبَر على العمل، بدأت أبحث عن وظيفة تساعدني في العيش براحة.. لا أقصد هذا العمل الصعب للغاية، ما أقصده هو عمل يساعدني على تحمل أعبائي الشخصية؛ فمن العار أن أجعل والديَّ يتحملان تكلفة ما أحبه وأريده، لا بد أن أتعلم كيف أبني نفسي حتى أصبح مؤهَّلاً عندما أتزوج.

بحثتُ كثيرا حتى أصبح الملل رفيقا لي لا يريد أن يرحل، ومن أجل حبه لي بدأ يرسل الدعوة إلى زميليه: الإحباط والاكتئاب، حتى يشاركاه الليلة، لكني لا أُهزم بسهولة، وعلى الرغم من أن قلبي رقيق لكن عقلي هو دائما ما يجعلني أخرج من هذه الحالة وأبدأ من جديد.

بعد بضعة أشهر وجدت وظيفة ليست كما أتمنى لكنها مريحة وتجعلني أجلب المال بسهولة، وما زاد إصراري أن مكان العمل بجوار بيتي، فبدأت على الفور الذهاب إلى المكان، وكان عبارة عن محل تصوير مستندات و«إنترنت».

تحدثت مع صاحب المحل، وكان رجلا لطيفا مهذبا معي، لا يخرج منه إلا الطيب.. شرحت له أني أريد أن أعمل في هذا المحل وأني لا أزال طالبا ولديَّ القدرة على العمل، نظر إليَّ الرجل وتحدث معي عن العمل والراتب.. لم يكن في يدي أن أشترط أو أتركه؛ فأنا في حاجة حقيقية إلى العمل، خاصة أنني لن أفعل غير التصوير لمن يريد أو من يريد أن يجلس ليفعل شيئا من خلال الإنترنت.

أعطيته كل المعلومات عني وأخذت مفاتيح المحل، وجاء يوم العمل من الساعة العاشرة صباحا.. بدأت في تنظيف المكان وكان يأتي إليَّ الناس، منهم من يريد أن يصور أوراقا ومستندات كثيرة، ومنهم من كان يجلس مستخدما الإنترنت ليعرف أخبارا أو يرسل ملفات عمل.

وفي يومٍ مشرقٍ مليء بالرياح الخفيفة والجو غير الحار دخلت عليَّ فتاة ترتدي عباءة سوداء مطرزة ملفوفة حول جسدها، بدأت تتقدم إليَّ خطوة

تلو الأخرى ونظرت إليَّ بعينيها الزرقاوين ورموشها المصطفة وكما لو أنها تحمل حنين الماضي لي؛

فقد كنت كثير الصداقات مع الفتيات الجميلات؛ فعشقي للجمال ليس لغرضٍ غير شريف لكني أراهن إبداعا لا بد أن أشكره من خلال التعرف عليه.

فتحت شفتيها وتحدثت فأخرجت صوتا عذبا تطلب مني أن تستعمل الإنترنت حتى ترسل سيرة ذاتية لعدد من مكاتب المحاماة كمحامية تحت التمرين.

لم أكن أريد أن أفعل ما تريده فقط، بل بدأت أتحدث معها قبل أن أعطيها ما تريده، استعنت ببعض الحيل فقُلت لها:

- إن أحد أقاربي يعمل في مكتب كبير لرجل محاماة شهير.. إذا كنتِ تريدين عملا فربما أسأله وأبلغكِ.

وجدت الفرحة في عينيها الزرقاوين ولم تجعلني أصمت قليلا حتى بدأت تتحدث:

- رائع ما تقوله؛ فأنا أبحث عن عمل يكسبني الكثير من المال ويكون في تخصص دراستي.

- إذًا سوف نقوم بإرسال السيرة الذاتية كما طلبتِ وسوف أتصل بأحد أقاربي حتى أسأله، لكني أريد رقمك حتى أبلغكِ بالنتيجة.

- حاضر.. سوف أكتبه لك في هذه الورقة.

بدأت تدوِّن لي رقمها في ورقة صغيرة وبدأت أرسل السيرة الذاتية كما طلبت مني.. جلست بجواري تشاهد ما أفعله؛ فهي أخبرتني بأنها ليست لديها المهارة الكافية حتى ترسل إلى الغير.

الحمد لله أنها جاهلة بالتكنولوجيا الحديثة؛ فأنا أريدها أن تجلس بجواري أكثر وقتٍ ممكن؛ فهذه لحظات لا توصف، أظن أني أجلس مع حورية قد

خُلقت لأرتاح وتخفف همومي.. كنت أعتقد أنني سأجد العذاب والسواد في هذا العمل، لكن العكس صحيح.

بعد أن قمت بإرسال كل شيء، أمسكتُ بالورقة التي دونت فيها رقمها وقرأت اسمها «حنين».. ياله من اسم رائع جذاب، بدأت أنظر إليها وأبلغها أن اسمها بديع وجذاب وأخبرتها أن اسمي «أنس».. أعجبها اسمي وأبلغتها بأني سوف أتصل بها عندما آخذ المعلومات من أحد أقاربي.

غادرَت المكان وكما لو أن الليل قد جاء وأصبح الجو مظلما ولا رياح تخفف من حرارة الجو.. أخذت أفكر ماذا سوف أقول لها، خاصة أنني لا أعرف قريبا أو صديقا يعمل في مهنة المحاماة ولا فراشا في محكمة.

أريد فقط أن أتعرف عليها وأتحدث معها، فربما هي قدري في هذه الحياة الصعبة، فلا فتاة استطاعت أن تجعلني هكذا غيرها، سأحاول جاهدا أن أبذل ما في وسعي حتى تكون نصيبي.

مرت أيام قليلة وأنا أعتقد أنها سوف تتصل بي أو تأتي إليَّ تسألني أو تطلب أن ترسل سيرة ذاتية إلى أشخاص آخرين حتى تعمل.. وفي يومٍ كنت مرهقا؛ فقد جاءني فيه قليل من برد الصيف وأخذت أشرب سوائل ساخنة.. دخلت عليَّ وعلى وجهها ابتسامة ونظرة لا أستطيع وصفها؛ فأنا حائر لا أعرف ماذا تقصد!! ألقت السلام ورددت عليها وأخبرتني بأنها كانت تنتظر هاتفي، بدأت في الارتباك لا أعرف ماذا أقول لها، لكنها قالت شيئا أخرجني من ذلك الموقف:

- لقد اتصل بي أحدهم وطلب مني أن أذهب إلى مكتبه في مدينة نصر حتى أعمل لديه.

- خبر رائع جدا.. لقد كنت أرتب مع أحد أقاربي حتى تعملي معه.. أصبح واضحا أن لديكِ عملا.

- لكني حزينة لأنك لم تتصل بي حتى ولو مرة واحدة.

- آسف على غلطتي هذه.. لكني لم أكن أريد أن أزعجكِ أو أتصل بكِ في

وقت غير مستحب، فربما يغضب والداكِ.
- ليس لديَّ أهل؛ فهم في الخارج، في لندن، وأنا هنا، يرسلون إليَّ المال؛ لذلك أريد أن أعمل حتى أصبح مؤهلة للحياة.
- جميل، أنا أيضا مثلك طالب، وأعمل حتى أصبح مؤهلا للحياة.
بدت عليها علامات الاندهاش عندما علمت أني طالب وأعمل من أجل الحياة وقالت:
- عجيب أنك تعمل في محلٍ صغيرٍ هنا ولا أعتقد أن الراتب كبيرٌ.
- ليس عجيبا، فهذا المحل الصغير يكسبني الكثير بجانب أنه بجوار منزلي.
- الآن فهمت ما ترمي إليه.. لا بد أن أذهب وأنا سعيدة بك وبهذا التعارف وسوف نلتقي ثانية إذا أحببت.
ودعتها وأنا سعيد، فقد حُلت المعضلة التي كادت تفتك بي، هي الآن تعمل وأنا وهي طالبان وأهلها لا يعيشون معها.. أعتقد أن القدر يرسل إليَّ رسالة بأني لا بد أن أتصل بها؛ فربما هي قدري.
بعد أن قضيت ساعات عملي ذهبت إلى منزلي.. بدأت آكل وأشرب القليل من العصير الطازج.. ما أروع طعم البرتقال.. أمسكت هاتفي، هل أتصل بها أم أنتظر؟ بدأت أطرح الكثير من الأسئلة داخلي، أريد أن أكلمها وأسمع صوتها ورقتها ويغمرني حنانها؛ فهي حقا حنين يصحبك إلى رحلة اليقين.
حُسم الأمر، سوف أتصل بها مهما كان رد فعلها، فلا بد أن أحاول، خيرٌ لي من أن أعيش حياة بائسة.
اتصلت بها وكانت الساعة الثانية عشرة منتصف الليل.. ربما هي نائمة أو لا.. بدأت أسمع صوتا:
- أهلا.. من معي.
- أنا «أنس»، ألا تتذكرين هذا الشاب الطويل؟
- «أنس».. هذا هو رقمك؟ أنت لا تزال مستيقظا!
- نعم.. أتمنى ألا أكون أزعجتك.

- أبدا؛ فأنا كنت أسمع أم كلثوم عبر الراديو مع قليل من النسكافيه.
- جو رومانسي.. أنا أيضا أحب هذا النوع من الأغاني، لكني أفضل عبد الحليم أو نجاة.
- هما الآخران رائعان، ولكل منّا ذوقه الخاص.
- هذا صحيح.
- بعيدا عن هذا، ما سبب الاتصال السعيد؟
- بصراحة.. أردت أن أتحدث معكِ.. حتى نصبح صديقين.
- صديقان.. موافقة بالتأكيد، فأنت فتى طيب وأنا سعيدة بالحديث معك.
- إذًا لا بد أن نعرف بعضنا البعض جيدا وأن نشارك بعضنا البعض في كل شيء؛ فالصداقة عندي تعني أن أحارب وأجاهد من أجل أن يكون صديقي سعيدا.
بعد هذا الترحيب من جانبها بدأت أحدثها عن حياتي وأني طالب في كلية الآداب، قسم اللغة الإنجليزية، وأني أعمل من أجل أن أعيش وأفعل ما أريد وأني لا أحب أحدا ولديَّ عائلتي أسكن معها.
وقامت هي الأخرى بالتحدث إليَّ وصوتها يكاد يكون لا يُسمع، وأعتقد أن هناك قطرات من البكاء تُمطر على خدها الأبيض، حدثتني بأن أهلها دائما يذهبون إلى العمل في «لندن» وتظل هي وحيدة هنا، لا أخوات لديها، وأقاربها يطمعون في المال الذي يرسله إليها والدها، وأنها طالبة تعمل من أجل أن تجرب نفسها في الحياة القاسية، تريد أن تصبح فتاة لا تُهزم ومن الصعب كسرها.
وأخبرتني أنها لم تتعرف على أي شاب؛ لأن دراستها كانت في جامعة الأزهر؛ فأنا أول شاب في حياتها.. وأنا أصدقها تماما، فهذا الشكل الملائكي لا يعرف الكذب وسوف أصدقها لأن قلبي أصبح مؤمنا بما تقوله.
بدأنا نتحدث كل يوم في كل شيء في هذه الحياة.. لم تأتِ علينا ليلة إلا وكان الحديث لا ينقطع، لا يوجد هناك أي حالة من الغضب أو البكاء..

أصبحت هي مصدر سعادتي وأنا كذلك.. أصبحت الحياة معها مصدرا للنعيم والراحة.

وفي يومٍ كنت متعبا من كثرة العمل فقد جاء إلي الكثير من الأشخاص كل منهم يريد طلبا أصعب من الآخر، بدأت أنفد حتى أصبحت جسدا يتحرك وعقلا ساكنا.. اتصلت هي فأنا لم أكن أستطيع أن أفعل ذلك وكان لا بد أن أحدثها فلم تمر ليلة واحدة إلا وكان بيننا حديث وأنا لا أريدها أن تشعر بأني متعب فأنا أخاف عليها.

صار الحديث بيننا عن ماذا فعلتُ وماذا فعلَت هي وأخذنا نضحك قليلا ونصمت قليلا حتى وجدت نفسي فجأة أتحدث ولا أشعر ماذا أقول.. أصبح عقلي ساكنا في مكانه لا يحاول أن يدير الحوار.. قلبي هو المتحكم في إدارة الحوار ولا أعرف ماذا أقول؛ فأنا لا أحفظ الكلام، وبعد عدة ساعات استيقظت من نومي وجدت هاتفي على السرير وأنا بجواره.

لا أعرف ماذا حدث.. هل كان كل هذا حلما؟ هي الوحيدة التي تعرف الحقيقة.. سوف أتصل بها في أثناء الراحة في عملي.. بعد أن ذهبت إلى العمل وبدأت أعمل ومرّت ساعات قليلة اتصلتُ بها فلم تجبني.. أخذت أحاول وأحاول حتى جاء الليل ولم تُجِب.

الشك أصبح داخلي.. ماذا فعلت يا قلبي؟ أنا أُكنّ لها كل الاحترام والتقدير وأرتاح في الحديث معها.. لكن ماذا فعلت حتى تغضب ولا تحاول أن تتصل بي؟

بدأت الأيام تمر عليَّ والسعادة ذهبت بلا رجعة، كل هذا بسبب أن عقلي قد صمت وترك الإدارة لهذا القلب الذي أفسد كل شيء.. لو كنت أعرف لتركت قلبي في وادٍ آخر غير الذي أنا فيه.. ماذا أفعل؟ ذهبَت وأريدها أن تعود، فهي ليست كغيرها ولا يوجد من يحل مكانها.

هاتفي يرن على الفور، أجبت على المتصل ظنا مني أنها «حنين»، لكني فوجئت بأنها «ريهام»، فتاة قد تعرفت عليها منذ فترة.. القدر هو من

جمعني بها، كانت أياما جميلة، لكنها ليست كأيام «حنين».. بدأت تتحدث معي عن أنها اشتاقت لي وأنها حزينة لأني لم أكن أعيرها أي اهتمام يُذكر وأن هناك شابا يعبر عن حبه لها وهي لا تعرف ماذا عليها أن تفعل وتريد أن تأخذ بنصيحتي.

أخبرتها بأن الحب ليس فقط بالكلام ولكن بالأفعال وبتنفيذ الوعود، ولا بد أن يعلم هذا الشاب أنه سوف يسلم قلبه إليكِ فإذا كان هذا عارا في نظره فهو ليس أهلا لكِ، وإذا قبل بهذا مؤمنا مدافعا عن هذه الفكرة فهو يستحق قلبكِ وعليكِ أن تحافظي عليه.

بعد حديث قصير بيني وبينها أعربت عن سعادتها بهذه الصداقة وأنا أعلم بداخلي أنها لا تزال تلك الفتاة التي كانت ترسل إليَّ إشارات بأنها تحبني، لكني عهدت إليها بالصداقة وأنا أنفذ وعدي لها.. فالرجال إذا خالفوا الوعود مع النساء خاصة انتهى حالهم بلا رجعة.

مرت أيام أخرى وأنا لا أشعر بأي شيء، أصبحت محبطا، لا صديق ولا حبيب بجواري، من يسمعني غير الله ونفسي؟ أين أنتِ يا «حنين»؟ كل ما أريده أن تكون معي حتى لو دقيقة؛ فنظرة تكفيني.

مر شهران وجاءتني رسالة فتحتها.. إنها من «حنين» تطلب مني أن أصفح عنها وأغفر لها وأنها سوف تتصل بي الساعة العاشرة مساءً حتى تشرح لي سبب غيابها.

جاءت الساعة العاشرة وأنا منتظر اتصالها حتى أطمئن عليها فأنا لا أريد أن أعكر صفوها، على الرغم من أنها مخطئة في حقي لكني سوف أسامحها؛ لأني لا أريد أن تعتقد أنني لا أستطيع أن أحتويها.

بدأ هاتفي يرن.. ها هي «حنين»، سأحاول جاهدا أن أخفف عنها وأعتني بها مهما حدث..

- «حنين».. اشتقت إلى صوتك والحديث معك.

- آسفة يا «أنس» فقد حدثت لي أمور ولا أريدك أن تغضب من غيابي عنك.

- لست حزينا من تصرفك، لكني اعتقدت أن آخر حديث بيننا هو السبب؛ فأنا لا أعرف ماذا حدث.

بدأت في الضحك قليلا ثم الصمت وقالت:

- لا تعرف ماذا حدث في تلك الليلة الرائعة!

- لا أعرف أي شيء؛ فقد حل عليَّ التعب ولم أكن أعرف ماذا أقول فتولَّى قلبي النقاش.

- الآن فهمت السبب في صراحتك معي.

- أريد أن أعرف ماذا حدث حقا.

- سوف أخبرك، لكن لا تندهش كما اندهشت أنا.. لقد بدأ صوتك ينخفض قليلا وأصبحت تنطق حروف اسمي ببطء حتى قلت إنني أحب صاحبة هذه الحروف وأريدها أن تصبح زوجة لي طالما بقيت حيا..

قاطعتها وعلى وجهي علامات الدهشة والحيرة، أفعلها قلبي المجنون؟ وقلت لها:

- أنتِ تعرفين أن القلب يتحدث بصراحة، وأعتذر إليكِ مما قاله إذا كان هذا هو سبب غيابك.

- لا تعتذر، فأنا أتفق مع قلبك؛ فلو كان هناك شخص آخر غيري لحزنت، فأنا أيضا أحبك وانتظرتك حتى تقوليها، لكن ها هو قلبك هو من قالها.

سعيد ومسرور بما تقوله «حنين».. أخيرا سوف تصبح زوجة لي، لكنها بدأت في صوت حزين تحدثني:

- للأسف زواجنا من الصعب حدوثه.

- هل بسبب أن أهلك بالخارج ولن يوافقوا؟

- ليس كذلك، بل إن هناك سببا لغيابي هذا.

- أخبريني فأنا أريد أن أعرف كل شيء.

بدأت تقص عليَّ ما حدث وأخبرتني أنها في يوم كانت ذاهبة إلى مكتب المحاماة، وعند وصولها إلى المكتب سقطت مغشيا عليها وذهبوا بها إلى

المشفى وعلمت من الدكتور المختص أنها لا بد أن تقوم بعملية قلب مفتوح ولا بد أن تتم العملية في خلال شهر ونصف الشهر على الأكثر، وإن انتظرت أكثر من ذلك فسوف تفقد حياتها.

بعد سماعي لكلامها لم أنطق بحرفٍ واحدٍ وبدأت دموعي تتساقط كما لو أني سحاب ممتلئ، أخذت أبكي وهي تخبرني بأن أتوقف عن البكاء، فهذا ليس حلا.. قُلت لها:

- هل بإمكاني فعل أي شيء حتى تستطيعي أن تكوني بخير وسلام؟

- أنت تعرف أن عائلتي في لندن، ولقد حاولت الاتصال بهم على الهاتف، وعرفت من والدتي أن والدي أصابه مكروه؛ فقد قامت عصابة بضربه وأخذ كل ما لديه، وهم الآن لا يملكون المال الوفير لكي يرسلوا لي، ولم أخبرهم بأنه لا بد أن أقوم بهذه العملية ولا أعرف ماذا أفعل.

- لا تقلقي؛ فأنا لا أحبك فقط، بل إنني سوف أساعدك، فهذا هو واجبي، ليس من أجل الحب فقط ولكن من أجل العشرة، كما أنني أسعد عندما أشاهدك فرؤيتي لكِ أصبحت جزءا من الحياة.

على الفور بدأت في البحث عن عمل، لا يهمني إذا كان شاقا أم لا، وعلمت من صديقي أن هناك وظائف سوف تعطيني راتبا كبيرا جدا، لكن المشكلة أنني بذلك سوف أعمل ليل نهار ولن أرتاح إلا ساعات قليلة، لم يكن بيدي الاختيار؛ فأنا في هذا الشهر أريد أن أربح أكثر مبلغ ممكن حتى تستطيع «حنين» السفر وأن تعتني بنفسها حتى تقابل أهلها هناك.

أخذني صديقي إلى مكان العمل ووجدت أنني سوف أعمل في الصباح حارسا للسيارات التي في أسفل الفندق وبالمساء سوف أعمل في بار الفندق وسوف أرتاح بين العملين ثلاث ساعات.

اتصلت بها وأخبرتها بأني وجدت عملا وسوف أعمل نهارا وليلا.. وبدأت تشفق عليّ من صوتها وأخبرتها بأني لا بد أن أفعل ذلك، فأنا أريدها زوجة المستقبل وإن لم أدفع الثمن الآن فمتى سوف أدفع حتى تصبح لي؟

بدأت في عملي هذا كل يوم من حراسة السيارات إلى هذا البار اللعين الذي يغزوه كبار رجال الدولة أصحاب الملايين كي يسكروا ويتعرفوا على فتيات الليل وينفقوا أموالهم كما لو أنها مثل التراب.. وكان من يعطيني دفعة للأمام هي «حنين»، تلك الإنسانة الرقيقة التي تجعلني سعيدا ولا أشعر بأي تعب مهما كان.

مر أسبوعان وأنا أعمل وأطلب منها أن تحافظ على نفسها وألا ترهق نفسها وأن تترك عملها وألا تتحدث مع الناس؛ فأنا أغارُ عليها، وهذا حقي، وغيرتي هذه تسبب لها ضيقا في نفسها وتخلق مشاكل بيننا، لكني لا أقصد ذلك؛ فغيرتي بدافع حبي ليس تحكما فيها.

وكان إذا طال الخصام يومين أو ثلاثة كنت أرسل إليها رسالة قائلا لها: «ولتعلمي يا حبيبتي يا ذات النفس الكريمة أني كالأطفال أغضب وأثور، وأحن عندما أسمع صوتك».. وكانت هذه الكلمات التي اجتهدت في كتابتها لها السحر؛ فكانت ترجع إليَّ ويزول الحزن.

وبعد أن انقضى الشهر أخذت راتبي كله وأعطيته إليها حتى ترحل لأهلها وتقوم بهذه العملية وترجع إليَّ بكل سلامة، أخذتها إلى المطار وقمت بتوديعها.. لم أتعود على مثل هذه اللحظات أبدا، لكن لا بد أن يحدث هذا فهي سوف ترجع إليَّ.

سافرت وقد أخذت معها كل شيء وتركت لي صورتها داخلي على الرغم من أني طلبت صورتها الحقيقية، لكنها رفضت وأنا لم أطلبها مرة ثانية.

تركت هذا العمل الشاق ورجعت إلى بيتي منتظرا اتصالا أو رسالة واحدة تخبرني بصحتها فلا أطيق الانتظار فربما قد حدث لها أي مكروه أو ربما قد قررت الرحيل أبدا، لكني لا أعتقد ذلك؛ فمثل هذه الفتاة لا تستطيع الكذب ولا التمثيل مهما حاولت؛ لأنها تملك قلبا علَّمني الكثير والكثير فكيف يكون سببا في آلامي؟

وفي يومٍ حار كنت نائما على سريري لم أُرِد أن أتحرك من سريري وجدت

هاتفي يرن باسمها، فقمت بالرد عليها:
- اتصالك يعني أنكِ أصبحتِ بحالة جيدة.
- الحمد لله، لقد قمت بإجراء العملية وكل شيء بخير والفضل لك.
- ليس لي فضل فيما فعلته، كما أنكِ سوف تكونين أمًّا لأولادي.
وصمتت لفترة قصيرة ثم بدأت في التلعثم في النطق:
- الحقيقة يااااا «أنس» أني ي ي ي ي أني لن أقدر على القدوم حاليا.
- لقد وعدتِني وبنيت أحلامي على أن تكوني لي طوال الحياة وأن أفعل كل شيء من أجلك.
- أعرف هذا كله، لكن ليس كل شيء ننتظره يحدث، وربما يحدث لكن ليس الآن.
بدأت أسألها: هل السبب في المستوى المادي، أم أن أهلها لا يوافقون عليَّ، أم أن هناك أحدا غيري وهي لا تريد أن تجرحني؟
كانت تتنفس ببطء وتحدثت قائلة:
- صدقني ليس هذا كله.. الحقيقة أني أشعر بحرية هنا كاملة، وفي مصر لم أكن أشعر كما أشعر هنا، فأنت تضيِّق عليَّ كل مرة وأنا كالطير لا يصح أن تجعلني في قصرك طوال اليوم..
قاطعتها بصوتٍ حزين:
- لكني أقبل أن أعيش في قصرك ولا أخرج منه أبدا.. طلبك أن تعيشي بحرية لا مانع لديَّ، ارجعي وكوني لي وسأفعل كل ما في وسعي.
- آسفة يا «أنس»؛ فليس بيدي، فوالداي يريدان أن أعيش معهما سنين مقبلة وربما ننتقل إلى مصر في يوم من الأيام.
أصبح كلامي عديم الفائدة فقد حُسم الأمر ولا بد أن أعرف ذلك.. لا مفر من الحقيقة.
- حسنا يا «حنين»، لم أعد أستطيع أن أقول شيئا لكِ إلا أني على عهدي بأني سأظل لكِ وأنتظر قدومك مهما حدث؛ فأنا لا أعهد بكلام ولا أنفذه حتى لو

كان من أحب يريد أن يصبح سرابا، فقلبي لا يعرف الحب إلا مرة وعقلي لا يقبل أحدا غيرك فافعلي ما تشائين وسأظل أنا كما عهدتِ محبا مخلصا ينتظر قدومك يا مالكة أمري.

سأظل على عهدي على الرغم من أني كنت أسقي زهور حبي لها عرقا وكان الرد همسات في أذني: إني راحلة يا حبيبي.

أسمّيتها «نانا»

اتخذت عهدا على نفسي أني لن أقابل أي فتاة مهما كانت، فكثير منهن مراوغات ساحرات ولن أتحدث مع أي فتاة تظهر أمامي، فإذا رحلتُ عن عالمها سوف تجد غيري وتتحدث معه وربما تقع في حبه وبعد ذلك تتركه وتذهب إلى غيره.

ومن وجهة نظري لا بد أن تعيش فترة من العذاب؛ فهي تتعرف على شباب من أجل الهوى ولا شيء يعلو عندها، لا الأخلاق ولا القيم ولا المبادئ، وحتى أقول الحق هناك نساء يأخذن من نظرتهن قوة لا توصف وحبا لا يمكن وصفه حتى لو وجدت أمامك حورية لتحاورك لن تحاورها لأن قلبك قد عشق بصدق واستمد طاقته من شخصٍ ما.

* * *

وللأسف سوف أكسر هذه القاعدة وسأذهب مع أصدقائي؛ فقد اتفقوا مع فتيات، على حسب وصف صاحبي جميلات، كلامهن يوحي بعمرٍ أكبر مما هن عليه ويدرسْن بجوار مدرستنا ويرِدْن أن يتعرفن علينا؛ فهن شاهدننا في محطة مترو المعادي وأعجبن بنا وقابل صديقي واحدة منهن قبل ذلك وهي الآن تريد أن نأتي نحن الثلاثة.

لم أكن أستطيع أن أرفض، ليس لأني أريد أن أقابلها؛ فمهما كان جمالها أنا لا أكسر قواعدي، لكن هؤلاء أصدقائي، سأفعل ما يريدون وسوف يأتي يوم يردون هذا المعروف.

ذهبنا إلى محطة المترو منتظرين وصولهن وأنا جالس لا أهتم، فقد أُطلق خيالي في قصائد الشعر وأبدأ بغنائها وأصدقائي مندهشون من أني لا أعير أي اهتمام، مر الوقت وها هن قد جِئن.. ثلاث فتيات، لا أنكر أن منهن واحدة قد جذبت نظري فهي قصيرة وعيناها سوداوان ولديها شفتان تبرقان وجسد يوحي إليَّ بأنها جاهزة للزواج.

بدأ أصدقائي في الحديث معهن وأنا أنظر إلى تلك الفتاة ولا أريد أن أتحدث بأي كلمة حتى نظرت إليَّ وقالت:

- اسمي «ناريمان».

- وأنا اسمي «حمزة».. هل لي أن أعرف كم عمرك؟

- حاليا.. لا أستطيع.

- هل لي أن أتحدث معك؟

- بالتأكيد يسرني ذلك؛ فالحديث مع الآخر يجعلك تستفيد بمعلومات ربما تجعلني أكثر علما.

لقد أثارت الفتاة إعجابي؛ فهي ليست كالفتيات الأخريات اللاتي يضعن مساحيق الوجه ويهتممن بأجسادهن ولا يُرِدْن أن يتعلمن أي شيء، دار الحديث بيني وبينها عن الحياة ثم أخذنا نتكلم عن الحياة الشخصية وتعمقنا في مراحل ليس هذا وقتها لكننا تحدثنا وكان ينظر إليَّ أصدقائي

نظرة أعرفها جيدا، لكني لم أكن أنتبه لتلك النظرات.

كان لقاءً جميلا، ظننت أنني لن أقابلها مرة أخرى إلى أن فعلت شيئا قبل رحيلها أعجبني كثيرا، جاءت بمنديل وقالت: اكتب عليه شيئا واكتب رقم هاتفك، وأنا سوف أفعل على الوجه الآخر للمنديل وسوف يأخذ كل واحد منا وجه الآخر.. طريقة رائعة لكي تعرف حقيقة مشاعري وتتصل بي.

بدأت في كتابة جملة أومن بها تماما: «نحب بإخلاص ونثق فيهن، وعندما نعاتبهن على أفعال خاطئة يغضبن ويتم قلب القصة كما لو أن هذا ليس من حقنا، إن لم تفهم المرأة من تحب وتحاول تنفيذ النصيحة فهي لا تستحق إلا فترة من العذاب حتى تعرف وتتعلم».

وبعد أن كتبت لها طلبن الانصراف حتى يرجعن إلى منازلهن، قام صديقي بتوصيلهن إلى مكان بالقرب من بيوتهن فهو يسكن بالقرب منهن، وبدأنا ننصرف.

ذهبت إلى منزلي وأنا أريد أن أرتاح قليلا وإذا بهاتفي يرن، فتحت على المتصل:

- من معي؟

- سأدعك تفكر قليلا من تظن المتصل.

- لست في حاجة لأن أفكر ولو قليلا، فهذا الصوت نادر التكرار، إنها أنتِ «نانا».

- «نانا»!! هذا ليس اسمي.

- أعرف أن اسمك «ناريمان»، لكني قلت لا بد أن أسميها فسميتكِ «نانا».

- جميل هذا الاسم المستعار.. أعجبتني جملتك، خاصة أنك تعرف المرأة وكل طرقها.

- ليس كل الطرق.. أنا أحاول أن أفهم طبيعتها حتى أتقي شرها.. وإن كانت هناك جملة جميلة فهي جملتك حينما كتبتِ: «كن صادقا أكن ملك يمينك.. ثِق في أُعطِك روحي».

- أنا سعيدة بأن جملتي القصيرة أعجبتك.. لكن هل كانت لك حبيبة قبل ذلك؟

- لم أكن أحب أحدا، ومن الصعب أن أحب؛ فالحب ليس كلاما يُطلق بل مشاعر تبدأ في ملء جسدك ثم تؤمن بمن تحب، والقدر يساعدك على أن تصبح تلك الفتاة حبيبتك.

- إذًا أنت لا تؤمن بالحب من أول نظرة.

- حالات قليلة هي من تحدث لها ذلك.

وبعد أن قُلتُ آخر جملة بدأَتْ تصمت وتتنهد وأنا أسمع أنفاسها، وإذا بها قالت كلمة جعلتني لا أستطيع أن أفكر، لم أكن أتوقع أنها ستقول: «أحبك».. هي فتاة رائعة أكن لها كل احترام، لكن أن أحبها حاليا هذا صعب، وأنا لا أريد أن أجعلها حزينة؛ فهي لا تستحق ولا قلبها الحنون، سأحاول أن أبتعد عن هذه الفكرة بما استطعت من قوة وليكن ما يريده القدر لنا.

بدأت أتحدث معها عن فكرة الحب والإخلاص وكيف يكونان، وهي تستمع جيدا لما أقوله لكني لم أنطق كلمة «أحبك» قط حتى لا أكون مالكا لها وأنا لست أملك لها إلا كل خير، وبدأت أحرّف الحديث عن أصدقائها وعرفت أن واحدة منهن هي قريبتها وليست فقط صديقة والقدر هو ما جعلها تأتي.

لقد كان حديثا رائعا معها؛ فعلى الرغم من أني أعتقد أنها ليست كبيرة عمرا لكن عقلها يفكر كثيرا وأنا أفضّل صداقتها خيرا لي من أن أحبها ويضع القدر لمساته فأخسرها مدى الحياة.

بعد أن انتهينا من الحديث بدأنا في إلقاء السلام حتى يرتاح كلٌ منا وسوف نتكلم في يوم لاحق.

ذهبت إلى النوم حتى جاء يومٌ آخر وجاء إلى منزلي صديقاي، بدآ يتحدثان عن الفتاتين وكيف كان اللقاء رائعا، خاصة أن كل واحد منهما بدأ يتعرف

ويزداد الحديث معهما، وهذا ما أخشاه؛ فأنا أعرفهما يريدان أن يعلقا قلبيهما ويفعلا بهما ما يحلو لهما.
كنت أستمع إليهما.. حتى جاء الحديث عن تلك الفتاة «ناريمان»، طلبا مني أن أحكي ما حدث، لم أرد أن أحكي الكثير غير أنها فتاة مهذبة ورقيقة وأني سميتها «نانا» نظرا لرقتها وكلامها العذب.
نظرا إليَّ كأني أحبها وبدأت أخبرهما بأنني سوف أطلب منها الرحيل فأنا لا أحبها، وإذا بصديقي يطلب أن أتركها له فهو يريد أن يتحدث معها.. لقد كنت أشعر بأنه سيطلب طلبا كهذا، فهو يحب أن يعيش مع الفتيات قصة حب ويلمس أيديهن ويسرن معه.
لن أقبل بهذا الأمر حتى لو أصبح لزاما أن أقول لها إني أحبها حفاظا عليها.. أعرف أني بذلك أدمر أشياء داخلها، لكني أومن بأن الحب الحقيقي سيأتي وتعتذر هي إليَّ وتطلب الرحيل.
أصبح صاحبي حزينا، فأنا أفسدت خطته، لكني أفعل ذلك من أجل الجميع وبدآ هما بالانصراف وبدأت أتحدث كل يوم مع «نانا» وهما يتحدثان مع الفتاتين الأخريين، بل إني كنت أسمع حديثهما مع الفتاتين الأخريين، فعندما نجلس معا كان يجعلني أسمع الحديث كله، وكان الحديث يدور بينهما في أمور لا تصح مناقشتها، لكن هذا ما حدث، فأنا أعلم صديقي جيدا، من المؤكد أنه وعدها بالحب والإخلاص، وهي تعتقد أن كلامه سوف ينفَّذ.
لم يكن في يدي غير أن أتحدث مع «نانا» أن تقترب من قريبتها والفتاة الأخرى وتحاول أن تعظهما وتتكلم معهما بالعقل، فهما في سنٍّ صغيرة وربما لا تعرفان ماذا تفعلان، بدأت تستمع إلى كلامي وتنفذه.
وبعد فترة ليست بالقصيرة جاءني صديقي يتحدث معي عن الفتاة التي أكلمها وبدأ يخبرني ألا أكون رقيقا معها فما لا أعرفه أنها تتحدث عن كل شيء دار بيننا لقريبتها وما لا أعرفه أن كل واحدة منهن تتحدث عن ماذا قلنا لهن ويبدأن في التفاخر وكل واحدة منهن تكذب حتى تظهر أنها أسرت

قلب الآخر.
كنت أستمع إلى حديثه وأنا حزين وبداخلي غضب شديد، كيف أثق فيها وهي تفعل ذلك؟ من الواضح أنني كنت مصيبا عندما وضعت قاعدة بأني لا يصح أن أقابل أي فتاة، بدأ صديقي يخبرني بألا أحاول أن أحدثها عن كل شيء فهي ليست كما أعتقد.
بعد أن رحل صديقي بدأت أجلس مع نفسي واتخذت قرارا بالرحيل مهما حاولت أن تصالحني أو تتوسل إليَّ؛ فأنا لا أستطيع أن أعيش في مثل هذه البيئة.
اتصلت بها وطلبت الرحيل ولم أكن أريد أن أحدثها بأني أعرف كل شيء، فقط طلبت الرحيل، وهي لم يكن لديها أي رد فبدأت في غلق الهاتف.
وبعد ساعات قليلة اتصل صديقي يخبرني بأن الفتاة اتصلت به تتوسل إليه بأن أرجع إليها وأتحدث معها؛ فهي تعشقني بصدق، لم يكن حديث صديقي له أي قيمة؛ فأنا اتخذت القرار ولن أرجع مرة أخرى مهما حدث ومهما فعلت فأنا لست حقل تجارب.
قمت بتغيير رقمي واستبدلت به رقما جديدا لم يكن يعرفه غير أصدقائي، لكنها لم تكف عن مطاردتي؛ فهي كانت تأتي بالقرب من مدرستي وكانت تنتظر ولم تفعل شيئا غير أنها كانت تريد أن تشاهدني أمامها.
بدأت تفعل ذلك يوميا وأنا لا أستطيع أن أغفر لها فهي لم تأتِ على كرامتي فقط، لكنها تخلت عن مبادئها، ومن يتخلى عن مبادئه يوما لا أستطيع أن أثق فيه مرة أخرى.
إنها النهاية يا «نانا»، ستظلين صفحة لن أحرقها، سأتعلم منها حتى لا أكون ضحية أخرى.

أسرار الجامعة

إنه اليوم الموعود أخيرا، انتظرتك بفارغ الصبر، فأنا أفضل أن أموت مرة عن أن أعيش تحت تأثير الكوابيس؛ فمرة أقذف هاتفي ومرة أفيق فجأة ضاحكا، لقد أُرهقت من كثرة الكوابيس ومن الكلية وأريد أن أرحل ولو كان بيدي لسحبت أوراقي من جامعة الأزهر، لكني رسبت سنة واحدة واللائحة تقول لا بد للفصل من الرسوب سنتين ورحيلي ليس عيبا في الأزهر وعلمائه بل في من يدرسون لنا المواد والتصحيح الظالم.

المهم أنه جاء يوم أن أعرف هل سأظل أسيرا في هذه الكلية وسوف أصعد للفرقة الثانية مصطحبا معي مواد، فمن الصعب أن أنجح نقيا، أم سآخذ أوراقي وأرحل إلى حيث أريد؟

ارتديت ملابسي السوداء؛ فأنا أعشق هذا اللون؛ حيث أشاهد نفسي فيه فاتن الجمال واتصلت بصاحبي «إبراهيم» حتى نذهب لنعرف النتيجة فهي عُلقت أول أمس ولا بد أن نعرف مصيرنا، وبعد ساعة ونصف الساعة في الطريق وصلنا المكان المحدد؛ حيث تقع كلية الشريعة والقانون جامعة الأزهر الشهيرة بـ (مقبرة الطلاب) بمنطقة الحسين.

دخلنا ملقين السلام على أمن الكلية والتقينا أصدقاءنا، بدأنا الحديث معهم وماذا فعلوا، أغلبهم سوف يأخذ حريته ومنهم من سيظل أسيرا مصطحبا

معه مادتين.. يا لهم من مساكين، بدأت أنا وصديقي نبحث عن اسمينا ووجدنا أن اللوحة المعلق عليها أسماء الطلاب قد تمزقت من بعض الطلاب الغاضبين فبدأنا نبحث عن الورق مرة على الأرض ومرة في سلة القمامة المجاورة للّوحة.. أخيرا وجدت لوحة بها اسمانا، بدأت أبحث عن اسمي حرفا حرفا.. ها هو، إياد يوسف، النتيجة كلها: ض ض ض ض.

نظرت إلى صاحبي وعيناي الخضراوان منفحتان وبابتسامة كما لو أنها رُسمت بواسطة رسام مبدع:

- أخيرا أنا حر بعد سنتين، قدرت آخد حريتي من مقبرة الطلاب.. وانت عملت إيه؟

قالها لي وهو شبه سعيد؛ فأنا أعلم أنه لو فُصل سيأخذه والده إلى حرفة ولن يكون هناك تعليم:

- أنا مختلف.. واضح إني هكون في المقبرة دي بس معايا مادتين: قرآن وفقه.

- حظك كده، اشكر ربنا وربنا معاك .

- وانت هتعمل إيه بعد ما اتفصلت؟

- المكان اللي دايما بحبه فن الصحافة والتليفزيون.. فورا هاخد أوراقي وأقدم في كلية إعلام التعليم المفتوح بجامعة القاهرة، باب القبول مفتوح لطلاب الأزهر المفصولين.

- بالتوفيق إن شاء الله.

تركته راحلا إلى بيته وأنا بدأت آخذ أوراقي من شئون الطلاب حتى أرحل بلا عودة؛ فهناك مكان آخر سيجعل مني قصة يريد الناس سماعها مرارا وتكرارا، قصدت منزلي حيث أسكن في زهراء المعادي، منطقة راقية أغلب الشباب فيها مرفهون.

دخلت البيت وأنا شبه حزين أمامهم حتى لا يتحدثوا بأني لا أشعر بحرج أو ليس لديَّ أي مشاعر، أبلغتهم بالخبر وخطتي المقبلة، وافق أهلي على الفور؛ فهم يعرفون أني أردت هذه الكلية ولم يكن لي نصيب، لا أعرف لماذا،

لكني عندما أدخل سوف أعرف.
انتظرت حتى فُتح باب التقديم للكلية، قدمت أوراقي وكان هناك طلاب كثيرون من الأزهر ومن غير الأزهر، وكثير من الفتيات الفاتنات صاحبات العيون المكحلة والجسم الرشيق؛ فمنهن من هي صورة لا يقدر مبدعٌ على رسمها، ولو رُسمت لفقدت شيئًا مهمًّا وهو الإحساس.. بدأت أقول محدثًا نفسي: هل هن سوف يكن معي؟ أنا محظوظ لهذه الدرجة، من جامعة لا امرأة فيها إلى كلية يغلبها الطابع النسائي؟
وكان هناك اختبار حتى يتم قبولي لدخول هذه الكلية، والحمد لله استعددت ودخلت هذا الاختبار غير الصعب نسبيا وعرفت بعد أيام أني من المقبولين وسوف تبدأ الدراسة في الأول من أكتوبر.
انتظرت هذا الشهر على أحر من الجمر، مستعدا بكل شيء؛ فأنا أتشوق لأول يوم أدخل فيه ممر الحلم الذي دائما ما كنت أتمناه.. أن أكون طالبا في كلية الإعلام.. أخيرا سأحقق ما تمناه قلبي.
الأول من شهر أكتوبر، أحضرت أفضل ما لديَّ من ملابس وعطور، وبدأت أجهز أغراضي، وحدث ما لم يكن في الحسبان، بدأ يحل عليَّ التعب ولم أقدر على الوقوف، أخذتني العائلة إلى أقرب مشفى وعلمت بعدها أنني لا بد أن أخضع لعملية جراحية للزائدة، شعرت حينها بقليل من خيبة الأمل؛ فأنا انتظرت هذا اليوم وعندما جاء حل المرض.
بدأت أخضع للعملية.. وتمت والحمد لله بنجاح، ولا أزال غير قادر على الذهاب إلى الجامعة، وكان أجمل ما في نظام التعليم المفتوح أن المحاضرات وملازم الدكاترة متاحة عبر موقع على الإنترنت.. بدأت في المذاكرة نهارا وليلا استعدادا للامتحانات فأنا أريد أن أثبت أنني صاحب عقل مميز ولست أنا الفاشل بل هم ومنظومتهم الفاشلة في التعليم.
مضى شهران وجاء موعد الامتحان.. بدأت في تحضير ملابسي الأنيقة وأصبحت جاهزا.

توجهت قاصدا المترو حتى أذهب إلى الجامعة، وبعد ساعة ونصف الساعة وصلت إلى الكلية وبداخلي فرحة كبيرة ودقات وأغانٍ.. دخلت عبر البوابة الصغيرة متجها إلى كلية إعلام هذا المبنى الضخم، لكن للأسف علمت أن هذا المبنى مصرح لي بدخوله في الفرقة الثانية، أما الفرقة الأولى فهي في مبنى كلية «دار العلوم»، دخلت مسرعا قاصدا المبنى التعليمي رقم «١»؛ فهذا هو المكان المخصص للامتحان.

يا إلهي.. ما هذه الأعداد؟ لهذه الدرجة المحبون للعلم؟ آلاف الطلاب رجالا ونساء منهم من يوحي ملامح وجهه أنه ابن العشرين وآخرون تصل سنهم إلى خمسين سنة.. لا أعرف أصحاب الخمسين، خاصة من النساء، ماذا يفعلن هنا، هل يعتقدن أن هذا ملجأ للبحث عن عريس؟

بدأت أسير في اتجاه المبنى، واعترضت طريقي فتاة يوحي جسدها بأنها تبلغ من العمر إحدى وعشرين سنة.. عينان سوداوان لامعتان بالشغف والحنين لشيءٍ لم أعرفه، ذات شعر حر ممزوج بين الأسود والأصفر، ترتدي ملابس صُممت لتحديد أجزائها، نظرت إليّ وتحدثت بصوت حنون:

- شكلك جديد وخايف من الامتحانات.

بدأت عيناي في النظر إليها بكل اندهاش.. ما هذه الفتاة العجيبة؟ أنا لا أعرفها، كيف تفعل هذا معي؟ وبعد ثوانٍ قُلت لها:

- الكلام موجّه ليَّ؟

- أيوه موجّه ليك، ولا عشان عينيك خضرة هتعمل مغرور؟ على العموم بالتوفيق في الامتحان، ولو نجحت هشوفك أكيد في التيرم التاني.

- إن شاء الله وبالتوفيق ليكي.

صحيح أنها لوحة رائعة.. القرب منها يشعرك بلذة رهيبة.. المشكلة أني لا وقت لديَّ؛ فالامتحان أهم، دخلت والحمد لله أجبت عن الأسئلة.

كان لديَّ كل يومين امتحان، وكنت - بحمد الله - لا أذهب إلا وأنا مطمئن من مذاكرتي وأخرج وأنا متأكد من إجاباتي، مرت ٤ مواد وأنا سعيد بأنني

قد فعلت ما أريده وبقيت لي مادة واحدة أريد أن أنتهي منها وآخذ إجازة؛ فعقلي لم يعد يحتمل.
في آخر يوم لم تكن المادة صعبة وقمت بالإجابة عن كل الأسئلة، وعند خروجي من المبنى قابلت تلك الفتاة العجيبة التي قابلتها في أول يوم، بدأت تسألني عن الامتحانات وماذا فعلت، بدأت أجيب وعكست السؤال إليها، وبدأنا نتحدث قليلا وعلمت أنها كانت تأتي في أيام الدراسة فقُلت لنفسي إنها فرصة أن أتعرف عليها جيدا حتى تساعدني.. بدأت أسألها:
- ينفع كده نتكلم مع بعض بدون ما نعرف اسم بعض؟
- أنا انتظرت تقول أو تسأل، انت الراجل، المفروض تسأل.. أنا اسمي «جانا»، وانت؟
- إياد يوسف، عاطل والحمد لله.. وقادم من الأزهر.
نظرت إليَّ بدهشة وكما لو أنني صدمتها ورسمت علامة تعجب على وجهها وبدأت تتحدث إليَّ:
- يعني انت زيي؟ أنا كمان تركت الأزهر وقدمت في المفتوح.
- صدفة عجيبة فعلا، خاصة إن البنات الأزهريات بيذاكروا دايما.
- الفكرة مش كده خالص، أنا كبنت مش عاجِبني نظام الأزهر في التعليم وكمان مستقبله، فقُلت مش أكمل لحد ما عرفت المكان هنا وقدمت.
- جميل، وأنا سعيد إني لقيت أزهرية ورائعة الجمال، والمفروض نبقى صحاب.
- أكيد طبعا.. وأنا هاخدك أعرفك على صحابنا.. شباب وبنات هتتبسط منهم جدا، خاصة إنهم مميزين.
أخذتني إلى حيث يجلس أصدقاؤها.. مكتبة و«كافيه» في الوقت ذاته.. بدأت أنظر إليهم، لا يبدو عليهم أنهم غير محترمين، سواء شباب أو فتيات، بدأت تعرفني عليهم واحدا تلو الآخر، ثم الفتيات الواحدة تلو الأخرى ثم قالت لهم اسمي وإنني مثلهم في نفس الفرقة الدراسية وإنني أزهري مثلها،

تعجب البعض واندهش الآخرون كما لو أن الأزهر يخرج جواسيس.
بدأ الشباب بلطف يتحدثون معي عن الدراسة وعن الأزهر وكيف هو الآن وماذا سوف نفعل في هذه الكلية.. وبعد فترة من الحديث بدأ الصمت يحل بيني وبين من يحاورني منهم.. وبعد دقيقة من الصمت تحدثت فتاة تُدعى «عبير النادي» ذات حجاب ملفوف حول وجهها كما لو أنه حاجب يفصلني لرؤية كاملة لهذا الإبداع الذي خلقه الله.. عيناها عسليتا اللون ترتدي ملابس فخمة وتضع عطرا كم أعشقه.. وأنا أستنشق عطرها قالت لي:
- شكلك مش راضي عننا.. من الواضح إنك بتكره الصحبة.
- أنا؟! لا خالص، أنا بحب أصاحب الناس، خاصة إذا كانوا مميزين، والناس هنا محترمة، كل واحد منهم عنده حلم ورقّة في الأسلوب.. القصة كلها إني بحب أرصد الآخرين في حديثهم وأتعلم منهم وأحلل شخصياتهم.
نظرت إليّ وعلى خدَّيها غمازتان رائعتان قائلة:
- واضح إننا زي بعض.. بس أنا بحب أُشعر الناس بالراحة عشان يقدروا يتكلموا براحة وأسمع كل مشاكلهم وأقوم بمساعدتهم وأستفيد وأفيد.
- أفهم من كلامك إنه عرض ليَّ؟
- لو كان في مشكلة فأنا جاهزة.
- الحقيقة لا.. كل هدفي هو الدراسة ومستقبلي المهني.. أنا حابب أكون قصة عظيمة يتكلم عنها الناس.
- عامة أنا هنتظرك لما تيجي وتقول كل حاجة.
نظرت إلى ساعتي، إنها الساعة السادسة والنصف، أنا متعب جدا، سوف أستأذن منهم وأرحل.. ووجدت «جانا» ترد:
- استنى، إحنا خلاص كلنا هنمشي دلوقتي.. انت طريقك من الباب الرئيسي ولا هيكون مترو؟
- أنا بركب مترو دايما.
- يبقى أنا و«سمير» هنيجي معاك، لأن الباقي بيركب من الباب الرئيسي.

بدأ كلٌّ منهم يستعد حتى يرحل، وفي هذا الوقت وجدت «جانا» تقترب مني وتخبرني بأنها تريد هاتفي، بصراحة كنت أريد أن أطلب هذا الطلب لكني لم أرد أن أحرج نفسي فأنا كرامتي فوق أي شيء مهما كان جمال من حولي، دوَّنته لها على الفور ودون تردد ووعدتني بأنها سوف تتصل.

بدأت أنا وهي و«سمير» في التوجه للمترو وبدأنا في قطع التذاكر واكتشفنا أننا جميعا سوف نركب اتجاه شبرا، لكن أنا سأخرج من محطة السادات وهم من محطة الشهداء.. ركبنا المترو وأنا ألاحظ نظرات بين «جانا» و«سمير».. أعرفها جيدا، هذه النظرات .. يكاد فقط أن تنطق أعينهما وتتلامس أصابعهما، لقد جاءت المحطة المرغوبة وسلمت عليهما وتوجهت إلى بيتي عبر الميكروباص عقب خروجي من المترو.

حالة من السعادة أشعر بها، لو كنت في جامعة الأزهر لما تعرفت على هؤلاء.. فجامعة القاهرة حياة أخرى.. اقتربتُ من بيتي حبيبي أريد أن أكون بداخله وأرمي جسدي المنهك من التعب عليه، غيَّرت ملابسي ووضعت رأسي على السرير ووجدت هاتفي يرن.. تحسست مكانه ورفعته إلي، إنها «جانا» تلك الفتاة..

- وصلت البيت؟

- أيوه.. ودلوقتي أنا على السرير، المشوار كان صعب.

- آه.. كنت عايزة أتكلم معاك، بس واضح إنك مش هتقدر، أنا هكلم حد من أصحابنا ولو حبيت تتكلم ابعت رسالة وأنا أتصل.

أغلقت الهاتف وبدأت أنام قليلا ثم استيقظت.. أريد أن أتحدث معها وأُصبح صديقها المقرب، لا أعرف لماذا هي الآن! أرسلت إليها رسالة وانتظرت نصف ساعة، لم تتصل كما قالت، اتصلت أنا، الهاتف مشغول، ربما هي تكلم أحدا.. ذهبت إلى النوم خائبا يائسا.

بدأ هاتفي يهتز عدة مرات.. نظرت إلى الساعة، إنها الثانية عشرة منتصف الليل، تحسست مكان هاتفي فربما هي أو تلك الفتاة مالكة القرار «عبير»

أجبت على المتصل ووجدتها «جانا»:
- بقالي فترة، انت كنت مقتول؟
- لا مش مقتول.. انتي اللي لسه صاحية.
- طبيعي لأني بفضل صاحية لصلاة الفجر أصلي وأنام.
- أنا بعتلِك رسالة واتصلت بيكي، تليفونك كان مشغول.
- وصلتني رسالتك، وأول ما خلصت الكلام اتصلت بيك لقيتك زي الكتكوت نايم.
- ممكن أعرف مين سعيد الحظ اللي كلمك كل ده؟
- حاضر.. صاحبنا «سمير»، اتكلمت معاه، أنا حسيت إنه طيب وأخلاقه عالية.
- هو ملامحه بتقول إنه طيب والأيام هتثبت لينا.
- طيب تحب نتكلم ولا هتروح تنام؟
- أنام؟ وهو ينفع برضه إن النجوم تكون مكان القمر؟
- بكاش بكاش بكاش.
بدأ الحديث بيننا منذ هذه اللحظة وكل يوم نتحدث صباحا ومساءً، خاصة أني عاطل ولا أعمل إلا في الإجازة الكبرى ونحن في الإجازة الصغرى وأريد أن أتعرف عليها.. بدأنا نتحدث في كل شيء عن حياتها وماذا تريد وكيف عاشت وما مواصفات من تريده أن يصبح لها زوجا.
أثارت تعاطفي.. صحيح أني أومن بأن النساء رقيقات لكن بعضهن لاعبات مراوغات، فالمرأة تأخذك في أول فصول حبها إلى قصر السعادة والمحبة وتظن أنك أصحبت سيد القصر ويرتفع الستار بعد ذلك وتجد أنك بلا قيمة داخل قلبها وتلقي بك في اليم يائسا وحيدا.
أبرز ما أثار تعاطفي حينما حدثتني عن العذاب الذي وُجه إليها من عائلتها؛ فهم كانوا يعاملونها معاملة سيئة فقط لأنها فتاة وكان أخواها الآخران يعامَلان برفق لأنهما رجلان، كم هي قاسية هذه الحياة.. كما أن

أهلها كان لا بد أن يعطوها قدرا من العذاب إما بالضرب وإما بالكلام الجارح.. حقا إنها حياة قاسية، وكان لا بد أن تعمل وتدرس.. فتاة مكافحة على الرغم من شهوتها الزائدة للحديث عن الحب والحنان المتدفقين منها على أي رجل تشعر بأنه قريب إلى قلبها.

لقد أصبح واجبا أن أحميها؛ فهي فريسة سهلة لأي صياد ماهر أو مبتدئ، أريد أن أحميها من هؤلاء المتلاعبين بالقلوب ومن جنونها بالحب وكيف تكون جميلة، فهي مهووسة بأن تظهر في أجمل مظهر حتى لو أظهرت أجزاء من جسدها الممشوق.

وبدأ يتصل بي الأصدقاء الذين تعرفت عليهم عبر «جانا»، منهم من كان يتكلم كثيرا معي ومنهم من كان قليل الكلام.

كنت سعيدا بهذه الاتصالات، فأنا أحب العشرة والأصدقاء، لكني لا أضيع أي دقيقة مع أصدقاء لا يهمهم إلا أنفسهم وإرضاء الذات والفتيات المتلاعبات القاسيات ذوات الجمال الرائع.

ولم تكتمل فرحتي؛ فهناك أحدهم لم يتصل بي وكنت أتساءل: لماذا يا «عبير»؟ أحيانا كنت أفكر كثيرا وأحيانا أخرى أقول لنفسي ربما هي تنتظر مني أن أطرق الباب طالبا غرفة في قصرها المسحور المليء بالقصص والأساطير.. ربما تريد مني أن أسرد قصتي.. وربما سيجمعنا القدر في موقف لا أعلمه، لكن حتما سيأتي.

* * *

اقترب موعد التيرم الثاني وأنا متفائل، تعلو وجهي ابتسامة الفرح.. وُجدت أمام مبنى كلية دار العلوم قبل المحاضرة بساعة ونصف الساعة منتظرا إياهم جميعا حتى نحضر معا.. مرت نصف ساعة وحضرت «جانا» ثم جاء الباقي ولم تحضر «عبير».. بدأوا بإلقاء التحية والحديث كيف كانت الإجازة.. وبعد حديث صغير توجهنا إلى القاعة كي نستمع إلى المحاضرة، جلسوا قبل آخر خمس مدرجات وأنا سعيد بهذا الاختيار؛ فأنا لا أريد أن أجلس في الأمام حيث الصداع والنفاق وثرثرة الفتيات.

حضر أول دكتور وبدأت أكتب كل ما يقوله ولاحظت نظرات بين «سمير» و«جانا»، تلك النظرات معهودة لدى المحبين.. نظرات تقول لا أريد أن تتحدث يكفيني أن تنظر إليَّ وتلمس يدي حتى أشعر بالحنان ولو مرة.

بدأت أدقق النظر أكثر، وفي الوقت ذاته لم أفقد بصري مع الدكتور كي لا أُشعر الآخرين بما يحدث.

اقتربت المحاضرة من الانتهاء وهما يحاولان لمس بعضهما البعض، أكاد أشعر أن يد أحدهما تقترب للآخر، وبالفعل هذا حدث فقد وجدت ما أدهشني «سمير» يقترب بيده إلى «جانا» وهي من قامت بوضع يديها الاثنتين، واحدة بالأسفل والأخرى بالأعلى وتتلمس أصابعه، فقط تكاد أن تصرخ أحبك.

انتهت المحاضرة.. وأنا لا أعرف ما هذا الحب السريع، كيف حدث؟ هل هناك من يعرف أي معلومة؟ تذكرت تلك الفتاة «عبير»، أعتقد أنها تعرف شيئا؛ فهي كما قالت قادرة على جذب الناس حتى يتحدثوا، لا بد أن أحاول أن أقترب منها، وكي يحدث ذلك لا بد أن أتلاعب بعقلها حتى تتحدث وتجعلني شريكا في قصرها.

خرجنا من القاعة قاصدين المكتبة، لكني اعتذرت إليهم فأنا لا بد أن أرحل والطريق طويل ووجدت «جانا» تقترب مني:

- لازم النهارده نتكلم.. أنا عايزة أقولك حاجة.

- أكيد هنتكلم، إحنا أصحاب.

غادرت مسرعا إلى بيتي وفي عقلي كثير من الأسئلة.. لا أعلم هل أنا أورط نفسي في أمور خاصة لا شأن لي بها! هاتف داخلي يقول لي اقترب من «جانا» فهي تحتاج إليك كصديق مخلص، أنقذها من بحور الحب الضائعة، وهاتف آخر يحدثني عن «عبير» وأنها لديها الحلول الحاضرة؛ فهي ليست كأي فتاة، إنها تتقن التأثير على الآخرين.

مضت سبع ساعات وبعدها جاءني اتصال هاتفي من «جانا»، على الفور رفعت الهاتف:

- أهلا «جانا»، أنا قلت لنفسي صعب أسمع صوتك.

- ليه صعب؟ أنا محتاجة أتكلم معاك لأني لازم أسمع أكتر من رأي.

- تقصدي إنك اتكلمتي مع حد غيري؟

- انت ذكي أوي يا «إياد».. وبصراحة أنا مرتاحة لك، حاسة إنك فعلا صديق وتقدر تساعدني.

- ربما أنا ذكي بس مش زي ناس معينة، ولازم تاخدي بالك منهم، ثم إنتي كمان عندك شيء خاص وهو جسمك، فهو مكمن السحر، وأنا أعتقد إنه هيجذب الآخرين بغرض اقتحامه عن طريق الحب.

- الحب مش عيب.. طالما هيكون في زواج شرعي.

- أكيد ما حدش قال حاجة.. وده اللي كنت عايز أكلمك فيه.

- حاضر أنا هحكيلك كل حاجة.

بدأت تسرد لي أنه منذ اليوم الأول وصديقنا «سمير» طلب رقم هاتفها كي يتحدثا عن المذاكرة، لكنه كان كل يوم يحدثها عن الحياة والحب والعشق ويروي لها قصصا ويسرد لها حكاياته وكيف عاش وحيدا يبحث عن قلبٍ يعشقه بصدق وأنه يريد أن يعطي أفضل ما لديه لأجمل ما سوف يكون له.

وازدادت العلاقة، خاصة في الإجازة.. وقررا الخروج مع بعضهما مرة إلى دار

السينما ومرة إلى كورنيش النيل بعد عملها وعمله؛ فهي تعمل في شركة نظافة، خاصة أن المرتب يكفيها، أما هو فيعمل مديرا لشركة ماكياج لوالده. بدأ الحديث يطول فوضعت الهاتف بين كتفي وأذني وذهبت لأحضر عصير برتقال من الثلاجة..

كنت مندهشا، كل هذا قد حدث! حتى أخبرتني بشيءٍ لم أكن أتوقعه أبدا.. لا أعلم كيف قبلت هذا وكيف فعل هو ذلك.. بدأت تتحدث بصوت منخفض وفي صوتها قليل من الحزن بأنه أخذها لشقته في ٦ أكتوبر، أخبرها بأنه يريد أن يريها الشقة التي سوف يتزوجان فيها، أخبرتني بأنها سعيدة بأن حلمها سوف يتحقق.. و«بعد أن وصلنا إلى شقته، بدأ يمد يده إلى يدي، أصابعنا تعانق بعضها البعض والعرق يتغلغل بينها، ودقات قلبي ترقص فرحا وهو ينظر إليَّ ويقترب ويخبرني بأنه يريد أن يأخذني بعد ذلك إلى عائلته لكي يتعارفوا، وبعد أن قال ذلك وجدت يده تركت يدي وبدأ يضعها على وجهي المبلل بالعرق فأنا لم أفعل ذلك أبدا في حياتي.. والعجيب أني مستسلمة تماما لما يفعله، لا أعرف إلا شيئا واحدا أني أحبه لدرجة أنني على استعداد للتضحية من أجله.

وبعد أن وضع يده على وجهي بدأ يتحسس شفتيَّ ويلمسهما بإصبعيه ثم اقترب ووضع قبلة منه على جبيني وبدأ يرجع خطوات للخلف قائلا: إني أحبك يا حياتي. هذه الكلمات البسيطة لمست قلبي وجعلتني خاضعة تحت تأثيره.

وبعد أيام اتصل بي عبر الهاتف لأقابله اليوم أمام مقر عملي ليأخذني بسيارته إلى بيته الذي توجد فيه عائلته، لحظة لا توصف.

ذهبت معه في سيارته، بدأ يتحدث معي عن بيتنا في المستقبل وكيف يريد أن نعيش، واقتربت يداه من يدي وتلامست مع بعضها البعض وأخذت يده اليسرى ووضعت قبلة عليها وابتسم هو الآخر وقال لي: شكرا يا زوجتي المستقبلية.

وصلنا إلى بيت أهله في منطقة الهرم، بدأت أتعرف عليهم واحدا تلو الآخر، تحدثنا كثيرا عن الحياة وماهية حياتي وبدأت أعرف كل شيء عن العائلة وكانت نظراتهم إليَّ نظرات إعجاب بجمالي وذكائي، مرت أربع ساعات وطلبت الرحيل حتى لا يتأخر بي الوقت وذهب معي إلى بيتي حتى لا يحدث لي مكروه.

مرت بضعة أيام واتصل بي، اعتقدت أنه يحدثني ليعرفني متى سوف تكون الخطوبة.. لكنه قال شيئا آخر، خبر هبط كما تهبط الكوارث الطبيعية على البشر.. قال لي إن والديه معترضان لأني أعمل في شركة نظافة وإن من يعمل مثل هذا العمل أخلاقه ليست حسنة ولا يستحق أن يناسب عائلة محترمة. غضبت من هذه الكلمات التي تخرج من أشخاص لا يشعرون بالكفاح من أجل العيش بكرامة.. وسألته ماذا كان رد فعله، أجاب بأنه لم يرد.. فغضبت من سكوته بعد أن أعطيته أغلى ما لديَّ وهو لم يفعل شيئا، بل إني استشعرت من صوته أنه أراد أن يمتلك قلبي ليفعل ما يحلو له وحتى أكون أسيرة في قصره لا مخرج إلا أن أسير كما يطلب.

والحقيقة أني أحبه ولا يزال قلبي متعلقا به وأود أن يكون زوجا لي، وما لا تعرفه أنه في الجامعة قد حدثت مشاكل بسبب اقتراب الفتيات منه؛ فدائما ما كنت أحرجهن وأحاول تشويه صورتهن حتى يبتعدن، أبرزهن فتاة قصيرة جدا ليست بالجمال الرائع كانت تدعى (سلوى)، كان يحاول التودد إليها والتحدث معها وهي كانت قصيرة مكيرة؛ فهي كانت تحدثه وعندما طلبت منها أن تبتعد عنه ظلت بجواره إلى أن قمت بضربها ولم تأتِ الكلية إلا في الامتحانات.

وبعد أن قال لي ما حدث لم أفكر إلا في شيءٍ واحد ولم أقل له إلا أني أحبه وأريده زوجا لي، خاصة أني أشعر براحة عندما تتلامس أصابعنا بعضها البعض يخيل إليَّ أن العشق وُلد لنا فقط.

ووجدته قد عرض عليَّ الزواج العرفي.. لم أكن مقتنعة في البداية، لكن مع

مرور الوقت بدأت أشعر بأنه لم يعد لديَّ أي مخرج آخر وقبل أن أوافق استشرت (عبير) صديقتنا وهي صاحبة رأي سديد فهي تعرف ما يجب فعله.

كما أنها قامت بمساعدة غيري من الأصدقاء، فما لا تعرفه أن هناك آخرين يحبون بعضهم البعض والفضل يرجع لها؛ فهي من قامت بتوجيه كل منهم حتى أصبح منهم من يقرر الخطوبة، وهي من قالت ألا أنجرف مع (سمير) في قصة الحب والزواج العرفي؛ فالمرأة إذا فقدت ما لديها فقدت روحها وحياتها بلا رجعة.. وأنا سمعت كلامها في قصة الزواج، لكن في الحب ليس بيدي؛ فأنا لا أزال أحبه وهو أيضا، وفي المحاضرة كنا نقترب من بعضنا البعض لا أعلم هل لاحظت ذلك أم لا، لكن هذا ما حدث وأنا الآن لا أعلم شيئا، خاصة أننا بعد المحاضرة وبعد أن رحلت قال لي إنه يريد أن يتقي سحر قلبي وإنه يريد الرحيل من عالمي بلا عودة.. أجبني ماذا أفعل».

طلبت منها أن تغلق وسوف أتصل بها لأني أريد أن أفكر في الأمر، على الفور استجابت لطلبي، لكنها أرادت مني ألا أكرهها وأن أقف بجوارها، وعدتها بأني سأقف بجانبها وسوف أتصل بها بعد أن أصل إلى حل.

بعد أن أغلقنا الهاتف أغمضت عيني.. يا إلهي، ما هذا الذي يحدث حولي؟ ما كنت أخاف منه.. ماذا عليَّ أن أفعل؟ حتى أنتِ يا «عبير» أصبح لكِ دخل بالقصة، بل أنتِ تكتبين قصصا للآخرين، لا بد أن أقف مع «جانا» فهي لا تستحق شرا، أعرف أنها مخطئة وضُحك عليها باسم الحب وسلمت الكثير له، لكنها لم تفقد روحها حتى الآن، وهذه الفتاة «عبير» لا بد أن أحاول التحدث معها كي أصل إلى أي شيء أو ربما تكون هي قادرة على المساعدة. لكني إذا وُجدت معهم بعد ذلك ربما أفشل في دراستي، لا بد أن أجلس خلفهم قليلا وأذكر أي سبب حتى أستطيع أن أساعد وفي الوقت نفسه لا أفقد عقلي.

بعد بضع ساعات قررت الاتصال وها هي تجيب:

- «جانا».. أنا اتوصلت لحل وهو صعب شوية ومفيش غيره، إنك تحاولي تبعدي عنه؛ لأنه شايفك ضعيفة ومش هتحبي غيره في الحياة.
- أنا بحاول يا «إياد» ومتفقة معاك إني لازم أبعد وبفكر في كده فعلا وهحاول أعمل كده الأسبوع الجاي.
- تمام، يبقى تبعدي عنه أو يقهر كلام أهله ويتزوجك أو يبعد عنك.
- حاضر يا أحلى صديق ليَّ وربنا يخليك ليَّ.
- ما تقوليش كده، ده واجبي والأسبوع الجاي أنا هحاول أشوف «عبير» وأستدرجها، يمكن تكون عارفة عنه حاجة.
- خلاص معادنا الأسبوع الجاي.. تصبح على خير.
- وانتي من أهله، وسلام يا أرق كيان.
اتخذت عهدا على نفسي بالوقوف بجوارها وأن أحاول الحديث مع عبير الأسبوع المقبل، فلا بد أن أعرف كل شيءٍ عن القصة.

****

أسبوع جديد سوف يكون مرهقا لي؛ فأنا متعب بين المذاكرة وحل هذه المشاكل والحديث مع فتاة مراوغة «عبير».. بدأت ألقاهم قبل المحاضرة، لكني طلبت منهم أن أذهب إلى القاعة لأني أريد فعل شيء.. ذهبت مسرعا إلى آخر مكان في القاعة، جلست هناك، وبعد فترة بسيطة وجدتهم يدخلون القاعة وجلسوا في أماكنهم وطلبوا مني الانضمام إليهم، لكني طلبت منهم أن يجلسوا في أماكنهم وأنا أريد أن أجلس بالخلف حتى أستمع جيدا للمحاضرة.
جميعهم جلسوا إلا «سمير»، وجدته قادما إليَّ وطلب أن يجلس معي، لم أكن أستطيع أن أطرده فهذا لا يليق، بدأنا في انتظار الدكتور، لقد مر أكثر من نصف ساعة ولم يأتِ.. أخذت أقرأ في الكتاب ووجدت «سمير» يتحدث

قائلا:

- بتقرا هنا في الجامعة؟ أمال في البيت بتعمل إيه؟

- بروح أذاكر برضه، بس أنا هنا هعمل إيه؟ ما عنديش حاجة تانية.

- ليه يعني؟ انت مش متعرف على بنات؟ ولا واحدة بينك وبينها أي قصة حب خالص؟

- حب إيه يا راجل.. وجواز وفلوس وأهل يتدخلوا وعلاقة؟ لا لا قصتها مش لذيذة.

- على رأيك فعلا.. أنا جربت الكلام مع البنات، كلهم رغايين وحبيت بنت انت تعرفها.

نظرت إليه بدهشة لكلامه عن أنه يحب بنتا، هل يقرر فضح «جانا»؟! حاولت أن أضع نفسي في وضع الشخص الذي لا يعرف شيئا فقلت له:

- بنت أنا أعرفها؟! كل البنات هنا محترمة، والحب مش شيء وحش.

- لا، مش كلهم، انت طيب جدا، أنا هقولك على البنت دي بس في التليفون لأني مش عايز أتكلم دلوقتي، خاصة إن الشخص ده موجود.

لم يكن لديَّ أي رد غير الموافقة.. بدأت المحاضرة الثانية ولم يأتِ دكتور المادة.. ما هذا اليوم؟ نظرت إليهم وجدتهم ذاهبين إلى المكتبة.. حتى «سمير» وجدته يأخذ شنطته وهو الآخر ذاهب إلى الأسفل، وطلب مني أن آتي معه، لكني صممت على الجلوس هنا في القاعة.

مرت ساعة وأنا أشعر بأن العطش كاد يقتلني، أخذت أشيائي وبدأت أخرج من القاعة إلى مكان مثل الكافيه بجوار المبنى التعليمي «١».. طلبت مشروبا باردا وبدأت أشربه وشعرت حينها براحة كبيرة.. وبدأت أنظر إلى الطلاب، استشعرت أنهم جاءوا من أجل التعارف والشرب فقط.. ووجدت «سمير» يقف مع فتاة رائعة المظهر، عيناها مكحلتان، قصيرة القامة، منظرها يوحي بأنها تعمل كممثلة أو في الإعلانات؛ فنظرتها رائعة.. قررت الاقتراب حتى أسمع ما يقولان والذي جعلني أصر على ذلك أن «سمير» لم

يكن وجهي لوجهه، بل كان بظهره.
بدأت الاقتراب قليلا وبدأت أسمعه يتحدث معها مغازلا إياها ويتحدث برقة بالغة وأسلوب بلاغي أكاد أشعر أنه شاعر الحب أو أنه شقيق «نزار قباني»، وبعد دقائق بدأ يتحدث معها عن الحب وأنه أحب فتاة هنا في الجامعة ولم يكمل معها؛ حيث إن أخلاقها سيئة وهي تلاحقه ولا يعرف ماذا يفعل، ووجدت الفتاة تحاول أن تنزع عنه الهم من خلال الاقتراب منه والهمس إليه ولمس يده من أجل ألا يحزن.
غضبت من داخلي، يا له من مراوغ، كيف يجعل «جانا» تحبه وهو يتحدث عنها هكذا ويحاول أن يأخذ قصتها ويفضحها حتى يكسب حب فتيات أخريات ويتقرب إليهن؟!
لم أكن أعرف هل أبلغ «جانا» أم ماذا أفعل! لكني قررت أن أنتظر حتى أتحدث معه وأعرف الحقيقة كاملة، فربما هي ليست صادقة أو تحاول أن تجعله ملكا لها بالافتراء عليه.
قررت الرحيل إلى البيت، فلا محاضرات اليوم أبدا والطريق طويل وأنا لا أريد أن أوجد أكثر من ذلك.. وصلت إلى البيت، بدأت آكل وأشرب ثم ذهبت للمذاكرة.
بعد خمس ساعات وجدت هاتفي يهتز ويرن، إنه «سمير»، سوف أتحدث معه بطريقتي الخاصة حتى أعرف كل شيء:
- ألو.. «سمير» أخبارك إيه؟
- أنا الحمد لله، انت إيه أخبارك؟ يا رب أكون مش مزعج.
- الحمد لله بخير.. إزعاج؟ لا خالص، ثم إنت مقارنة بالبنات اللي معانا مش مزعج خالص.
- تسلم يا «إياد».. انت بتعمل إيه دلوقتي؟
- أبدا، كنت بذاكر شوية وقُلت أستريح وأهو أتكلم مع أصحابنا، خاصة «جانا» لأني مش بشوفها كتير.

- اشمعنى «جانا» مع إن عندك «عبير» الغلسة أو «راندا» ولا في حاجة ما بينكم؟ لو فيه قولي عشان أنصحك.
- أبدا، بس أنا كلامي مع «عبير» مش كتير و«راندا» شخصيتها متقلبة وبعدين دي أصلا كُسلية، دي مكسلة أصلا تعيش، بس تقصد إيه بكلمة لو فيه بيني وبين «جانا» حاجة أقولك؟ هو انت عايز تقول حاجة؟
- فاكر لما قولتلك إني كنت بحب بنت.. البنت دي هي «جانا».
- طيب مبروك، وإيه هتعملوا فرح ولا خطوبة؟
- انت مجنون يا ابني، بقولك كنت بحبها ومش ينفع خالص نرتبط لأنها ما تنفعش ليَّ.
- ليه كده؟ ما تنفعش ليه؟ فهمني.
- هفهمك.. عشان أنا حبيتك والله وأنا بحب أصحابي.
اندهشت من كلامه وأنه سوف يصارحني بكل الحقيقة، لا أعلم هل يريد تكملة مسلسل التشويه أم سوف يقول لي الحقيقة.
بدأت أسمعه وهو يحكي القصة منذ البداية.. في أول يوم أعلن حبه بعد أن بدأ يلاحظ جمال عينيها وجسدها المشوق الواضح عبر ملابسها وصوتها الحنون المليء بالحنان، وأنها قابلت ذلك بود ورحبت بكل سرور وأنها أعلنت حبها له.
ثم تطورت القصة بعد أن كنت أذهب إليها في التيرم الأول إلى مقر عملها أسلم عليها وآخذ القليل من حنانها وأعطيها المذكرات حتى لا ترهق جسدها وعقلها في التفكير، وبدأت هي الأخرى تأتي إلى عملي وطلبت أن نخرج معا حيث أريد، أحببت هذه الأيام، لكنني اكتشفت أنها سيئة الخلق والصفات؛ فهي حاولت الاقتراب مني من أجل المال والمصلحة، كما أنها لم تحبني كما أحببتها ومن السهل أن تخني.
وعلمت من بعض الصديقات أنها تقول إنني أحبها وأطاردها في كل مكان.. الحقيقة هي من تطاردني وأنا لم أعد أحبها واكتشفت أن ما حدث هو من

أثر سحرها الكامن في عينيها وصوتها وأسلوب تعاملها معي؛ فهي المخطئة ولست أنا.
لم أُرِد أن أقاطعه وهو يحكي لي؛ فأنا أعرف أنه يكذب في تفاصيل كثيرة، لكني أريد أن أعرف كل شيء حتى لو كان كل شيء كذبا كي أستطيع استخدام كل المعلومات حتى أفسد أي خطة دنيئة يريد تنفيذها.
صار يحكي كيف كانت ترسل إليه رسائل حب وعشق، وبعد فترة ظهر حبها للمال والاستغلال وسلوكها غير السوي.. بدأ يتحدث عنها كما لو أنها راقصة عاهرة تحاول الزواج من عالِم دين.. وبعد أن انتهى من حديثه طلب مني أن أحتفظ بهذا داخلي وألا أقوله لأصدقائنا.
أدركت أخيرا أنه مراوغ وخائن ويحول الحقائق الملموسة إلى خيال روائي، يريد أن يتخلص منها فيشوِّه صورتها أمامي وكل من يعرفها ويعرفه حتى يظهر في صورة الملاك البريء، لكني لن أسمح أن يحدث هذا؛ فمع أن «جانا» كالفرس الجامح، لكن هذا لا يعني ألا أحاول حمايتها، سوف ألقاها هي و«عبير» وأتحدث معهما.
مضت الأيام سريعة وجاء يوم الذهاب إلى المحاضرة وأنا بداخلي صراع كبير ولا بد أن يُحسم من خلال الحديث مع أطراف القضية، وجدت «عبير» وهي تضع قدمها على باب المدرج، صِحت باسمها فقدمت إليَّ بوجهها المشرق:
- «إياد».. ازيك، ما حدش بيشوفك.
- أنا الحمد لله، الدراسة بس والحياة، انتي اللي واضح إنك أصبحتي زي ما بتحبي.
- يعني إيه؟!
- يعني بدأتي تشبعي رغبتك في إنك تصبحي كاتمة الأسرار.
- مين قالك كده؟ مش حقيقي خالص، أنا بس بساعد الناس.
- مش حقيقي؟ طيب إيه رأيك نسيب المحاضرة دي وننزل تحت نشرب

حاجة ونتكلم وهفهمك قصدي؟
- موافقة.
تركنا القاعة ذاهبين إلى مكان جديد حتى لا يشاهدنا أحد من الأصدقاء.. أخذتها خارج الجامعة حيث الجهة المقابلة لباب كلية التجارة.. طلبت منها أن نجلس في مقهى يسمونه حديثا «كوفي شوب».. وافقت وبدأت أتحدث معها كيف تعيش هي، وكيف تحلل الأمور، وهل تستطيع أن تتوصل لنتائج حقيقية، خاصة أنه من الصعب معرفة كل أوجه الحقيقة.
كانت ترد بكل لباقة حتى أدركت أنها حقا عرافة الفرقة، وصلنا إلى المقهى، جلسنا في ركن شمالي، الزجاج شفاف والجو بارد من أثر المبرد، جاء إلينا شاب يرتدي الزي الموحد للمكان، سألنا ماذا نريد، طلبت أنا فقط كوب عصير موز بالحليب.. كم أعشق هذا المشروب فأنا أشعر بأني في عالم آخر.. وعندما سألها ماذا تريد، طلبت شيئا جعلني مندهشا، إنها تطلب شيشة تفاح وكوب شاي، يا إلهي، فتاة تدخن!! ما هذه الصدفة العجيبة؟ فتاة ذكية رائعة الخلق لديها سحر وبريق خاص لا يفقد أبدا وتدخن؟!
بدأت أتحدث معها وأنا مندهش وأنظر إليها بعد أن جاءت الشيشة وطريقتها وهي تضع هذا الشيء في فمها وتنتظر بضع ثوانٍ وتخرج هذا الدخان من فمها وتغلق عينيها، بعد دقيقة نظرت إليَّ بابتسامة وقالت:
- أول مرة تشوف بنت بتشرب شيشة؟
- بصراحة ومن غير زعل حسيت إني قاعد مع رقاصة من شارع الهرم.
ضحكت قليلا وبدأت توجه عينيها الفاتنتين إليَّ:
- أنا مش زعلانة من صراحتك، انت واضح ان عمرك لا شربت شيشة ولا سجاير.
- أنا ما أقدرش أشرب الحاجات دي، مش خوف، لكن أنا رياضي ولا ينفع أدمر صحتي كده.
- دي مش تدمير صحة، الشيشة حاجة تانية خالص، عامة سيبنا منها، إيه

اللي كنت عايز تقولي عليه لما كنا هناك؟
- تفتكري انتي بأسلوبك وبفهمك الراقي أنا عايز أقول إيه؟
- صعب التخيل معاك؛ لأنك مختلف، هما ممكن تتخيل أي شيء، لكن انت صعب.
- هما أي شيء، على كده انتي عارفة كل حاجة والمشاكل اللي ممكن تحصل لأي حد منهم وساكتة.
- لما يكون الشخص اللي انت بتقوله النصيحة مش عايز يتقبلها ما عندكش حل غير إنك تخليه يجرب بنفسه ويعرف الحقيقة كاملة.
- مش متفق معاكي، أحيانا الحب بيعمي كتير وأحيانا الروح اللي الآخر بيخليكي تحسيها بتكون سبب رئيسي في وضع غمامة سودة تخليكي كأنك فاهمة لكن انتي ماشية في طريق صعب.
- تقصد مين بالكلام ده؟
- تتوقعي أنا أقصد مين؟
- قُلتلك صعب معاك الخيال، لازم أسمع منك انت.
- وأنا صعب أقول الاسم على طول، بس الموضوع أعتقد إنه بدأ يكبر وواجب عليكي إنك تعملي أي حاجة عشان تمنعي الكارثة اللي هتحصل.
- وصلت للكارثة؟ أنا فهمت قصدك، انت واضح إنك لسه ما تعرفهاش كويس ولا تعرف القصة كلها.
- مش حقيقي، أنا أعرف حاجات انتي فاكراني ما اعرفهاش، لكن الحقيقة إني أعرف، وأنا بتكلم معاكي بصراحة عشان الوقت أزف وانتي ما عملتيش حاجة معاها.
- عشان نكون واضحين، انت تقصد «جانا» و«سمير» والقصة اللي ما بينهم.
- أيوه.. أهو انتي جبتي الآخر أهو، بس هل ورد لعلمك التطورات اللي حصلت؟
- انت فاكر إن الكلام بيوصلك انت وبس؟ إيه رأيك إن هو بدأ يفضحها

ويشوه سمعتها ويطلعها في صورة وحشة.
- زي ما توقعت وعرفت من أول ما كلمني.
- هو كلمك كمان؟ يعني مش هي بس؟
- أيوه اتكلمنا وفضلت أسمع للآخر وقُلت نشوف حل.
- أنا نصحتها قبل كده وهي ما سمعتش الكلام.
- أنا عامة قلتلها وطرحت عليها الحل ولازم تنفذه.
- جميل، أتمنى يحصل وتسمع.
- لا ما تخافيش.

بعد أن انتهينا من حديثنا الشيق واستمتعت بأسلوبها في الحوار، على الرغم من أنها تدخن، غادرنا المقهى حتى نحضر المحاضرة الثانية فهي على وشك أن تبدأ.. وصلنا إلى الكلية ودخلنا معا وتركتها عند باب القاعة، جلست هي معهم وأنا جلست خلفهم.

حضر الدكتور ومرت نصف ساعة من المحاضرة وفجأة ودون سابق إنذار سقطت «جانا» على الأرض.

الكل وقف متجمدا لا أحد يتحرك.. ووجدت جسدي يأخذني إليها لأقوم بوضعها على المقعد، وسحبت زجاجة المياه من يد «عبير» وبدأت أغمر وجهها بالمياه والجميع ينظر إلينا حتى من يقول إنه يحبها لا يفعل غير النظر.. بدأ منظري وكأن أنا من يحب وليس هو.. لم أكن أهتم بنظرتهم إليَّ فأنا أفعل ما يتوجب عليَّ فعله وهو إنقاذ صديقتي.

الحمد لله لقد بدأت تفتح عينيها من حالة الإغماء، أمسكت ذراعيها وخرجنا من القاعة حتى تفيق والدكتور يشرح للطلاب:
- ينفع كده؟ إحنا قُلنا نكون أقويا.
- مش قادرة، بحبه أوي هو ما كانش خايف عليَّ.
- خايف عليكي؟! انتي مجنونة، هو أصلا ما اتحركش خطوة واحدة.
- يا خسارة، بعد كل ده ومنظري دلوقتي طلع مش بيحبني.

- تقصدي إيه بكلمة يا خسارة؟
- بصراحة، إحنا اتكلمنا بعد المحاضرة الأولى وهو أصر على الرحيل فقُلت لنفسي أجرب إني أعيش في حالة إغماء.. وكنت مستنية هو ينقذني بس لقيتك انت اللي أنقذتني.
- يعني كل دي تمثيلية عشان تشوفي هو بيحبك ولا لأ؟ تعرفي، خسارة فيكي وفيه وفيكم كلكم؟
- استنى بس، أنا بحبه ومش قادرة أعيش من غيره.
- وأنا مش هضحي بوقتي.. لما تقدري تخفّي منه هكون موجود، لكن في حالتك دي أنا لازم أمشي عشان نفسي كمان.
قررت الرحيل من هذه المجموعة؛ فأنا لا أريد أن يدخل اسمي في هذه القضية أبدا؛ فهم كالمجانين يفعلون أشياء غريبة.. أحاول أن أحميها وهي لا تفعل إلا ما في عقلها، حتى «عبير»، صحيح هي فتاة رائعة لكنها لا تسمح بأن يعبر أسوارها أحد ولن أترك نفسي تحت إرادتها فأنا لست عاشقا ولا أسيرا في قصرها.
إذا استمررت سوف أكون ضحية لأحدهما وسوف أفقد ما أريده، ولن أحقق أي مرتبة علمية أبدا.. الرحيل هو الحل، وأنا سوف أكون على استعداد لمساعدة أي منهم، خاصة «جانا»؛ فهي فتاة فاتنة لكن لا بد أن تفهم الحياة.
لن أضحي بحياتي كاملة من أجل الآخرين، فلا بد أن أزن الأمور بعقلي وأفهم الحقيقة كاملة، أنا أحب أن أساعد أصدقائي، لكن لا يعني هذا أن أدفع ثمن أخطائهم.. سأبدأ في تحديد هدفي وهو الكلية وهم يفعلون ما يشاءون.

لم أكن أحبها فهي...

لقد جاءت الإجازة الصيفية التي أنتظرها من العام للعام؛ فجميع الطلاب المجتهدين أمثالي يُفرض عليهم حصار طوال العام، كل شيء ممنوع، حتى النزول مع الأصدقاء ممنوع، والذهاب إلى أي مكان عام غير مصرح به، الدراسة تعتبر أيام سجن وشقاء لكثير من الطلاب، ولآخرين هي الفرصة الوحيدة لقضاء وقت ممتع ثم الرسوب وبدء المذاكرة من أجل امتحان المواد مرة ثانية.

وأكثر ما يجعلني سعيدا بهذه العطلة أنني أفعل كل ما يحلو لي؛ فأغلب أصدقائي من المدرسة بجواري ويجمعنا هدف مشترك وهو «الإنترنت».. هذه التكنولوجيا الرائعة، كم أريد أن أشكر هذا العبقري الذي اخترع لنا جهاز الكمبيوتر والإنترنت.

كل يوم أجلس على الجهاز ابتداءً من الساعة ١٢ منتصف الليل إلى الفجر، أصلي الفجر وأذهب للنوم بعدما يتم إرهاق عقلي وجسدي من التحدث مع الأصدقاء والذهاب والرجوع إلى البيت والحديث عبر شات يُدعى «الياهو» وموقع التواصل الاجتماعي «فيس بوك» وبداخله أشخاص كثيرون وأكثرهم فتيات رائعات الصورة والصوت، لا أعلم هل هذه صورهن أم لا، لكني لا أرسل صورتي لأي أحد منهم ولا أقابل أحدا؛ فأنا أومن بأن من يستحق مقابلتي هي شريكة حياتي ولن تكون فتاة من فتيات «الإنترنت»

التي تخاطب المئات من الشباب.
وجاءت فكرة لديَّ أن أحضر أحد أصدقائي إلى بيتي؛ فأسرتي ذهبت إلى الإسكندرية؛ فالجو هناك ممتع والبحر جذاب.. فكانت هذه فرصة رائعة، خاصة أن صديقي هذا محترف «شات» ويعرف كل شيء.
جلسنا منذ الساعة السابعة مساءً نبحث عن شات عربي بداخله فتيات حتى دخلت علينا فتاة اسمها على الشات «مغرورة ولن أحبك»، أعجبني هذا الاسم؛ فأنا أجد فيه تحديا رهيبا، وكان صديقي قد دخل باسم مستعار «كيان لا يقهر»، تحدثت إلينا الفتاة:
- هاي.. أنا عجبني اسمك أوي.
نظرت إلى صديقي وأخبرته أن يتركني أجرب قدري معها، فربما نتعرف عليها ونصبح أصدقاء، وافق صديقي وبدأت في الجلوس وكتبت إليها:
- هاي عليكي.. اسمي ده أقل حاجة.. شخصية صاحب الاسم هتعجبك أكتر.
- واضح إنك لمض وهتتغر عليَّ، اقرا اسمي وهتعرف إني أكبر مغرورة.
- يا سلام على تواضعك، أكبر مغرورة وفرحانة؟ طيب أجيب شربات؟
- لا مالوش لزوم، أنا بحب عصير الأناناس.
- طيب أنا أعرف واحد بتاع عصير أناناس جنب بيتي.
- لا شكرا.. لو عندك ياهو قوله لأني لازم أقفل حالا.
- حاضر اتفضلي.
وبدأت أدون لها إيميل الياهو الخاص بي وصديقي ينظر إليَّ وهو مندهش من قدرتي على الحديث معها وعدم التلعثم فأنا يُعرف عني الأدب والأخلاق.
غادرت «الشات» وحل علينا الجوع، لم أجد في الثلاجة أي طعام فقررت أن أذهب أنا وصديقي إلى محل البيتزا.. بعد أن ذهبنا وأخذنا ما نريده ذهبنا إلى بيتي وتناولنا البيتزا كلها، فقد كان الجوع مسيطرا علينا.
وبعد ساعات قليلة طلب صديقي أن يرحل إلى منزله فهو مرهق ولا يستطيع أن يشاهد أي شيء أمامه فقد أصبحت الساعة ٣ فجرا، لكني

لم أُرهق أبدا فدخلت إلى غرفتي وجلست مرة أخرى.. حدثتني نفسي بأن أفتح إيميل الياهو فوجدت تلك الفتاة أرسلت إليَّ رقمها وتريدني أن أكلمها على هاتفها.

أنا الآن متعب ولا أستطيع التحدث، سوف أذهب إلى النوم وبعد أن أستيقظ سوف أتحدث معها حتى أستطيع أن أعرف ماذا تريد، فلا أظن أنها طيبة القلب لهذه الدرجة.

وبعد أن ذهبت للنوم وجاء الصباح ذهبت كي أحضر إفطاري الخاص وبعد أن ملأتُ معدتي والحمد لله أخذت هاتفي وجلست على سريري وقررت أن أتصل بها.. هاتفها يعطيني جرسا، وقبل أن أغلق بدأت أسمع صوتها:

- ألوو.. مين معايا؟

- تحبي يكون مين معاكي؟

- من غير ما أحب، أنا عارفة انت مين.

- يا سلام.. عرفتي إزاي بقى؟ هو أنا كنت اتصلت بيكي قبل كده؟

- لا بس أنا رقمي مش أي حد بياخده، وبما إنك اتصلت بدري كده يبقى انت الشاب اللي بعتله رقمي.

- وكمان طلعتي ذكية، يعني مغرورة وذكية؟

- أمال إيه؟ انت فاكرني هتعب وأقعد أدور؟

- خلاص خلاص فهمت.. أنا قُلت أتصل بيكي أتكلم معاكي.

- تمام.. يلا عرفني بنفسك وأنا هعرفك بنفسي.

صمتُ لثوانٍ قليلة حتى أعرف ماذا أقول.. قُلت لها إن اسمي «فهد»، طالب في مدرسة ثانوية أزهرية، وعمري لا يتجاوز ١٨ سنة، وطبيعي أني غير مرتبط وأسكن في شقتي مع أهلي وليس لديَّ أي إخوة، وأنا من ساكني المعادي القديمة بالقرب من محطة المترو.. هذا هو أنا باختصار.

لم أكن أسمع منها أي رد، بدأت أتحدث وهي لا ترد... الخط كما هو لم ينقطع، ثم قالت بصوت جعلني أغمض عينيَّ وأتخيلها.. أنا أيضا نفس

السن، لكني في مدرسة ثانوية تجارية، والعجيب أني أسكن بالمعادي القديمة واسمي «هدير يوسف».

راودني الشك حينها هل هي فتاة تكذب أم أن هذا من إعداد أحد أصدقائي يريد أن يجعلني دمية في يده يحركها كيف يشاء.. وربما يريد أحدهم أن يرد إليّ الضربة؛ فأنا أتميز بالقدرة على تقليد الأصوات، حتى أصوات النساء أقلدها بكل براعة، وكم كنت أتحدث مع أصدقائي عبر الهاتف وكنت أجعلهم يعيشون الحلم ثم أفاجئهم بأن هذه الشخصية أنا.. فربما أحدهم يريد أن يجعلني دمية، لكني لن أكون فأنا لديّ صديق سوف يساعدني على معرفة حقيقة هذه الفتاة.

أخذنا نتحدث في كل شيء عن الدراسة والأصدقاء والحياة، وبدأ حديثنا يتطور حتى وصل إلى مرحلة الحب والعشق، وبدأت أحدثها عن أني لا أحب بكل سهولة، بل إنني أترك قلبي يختار وعقلي يحدد ثم قلبي هو الحكم.

كنا نتحدث كل يوم، وكانت هي من تتصل في اليوم أكثر من مرة، حتى جاءني شك وأسئلة: لماذا تفعل كل هذا؟ كنت أتحدث معها، بل إني كنت أُسمعها بعض أشعاري عن الحب وكانت تستمع بكل لطف وأدب، بل إنها كانت تغني بصوتها الرقيق والمميز.. إن صوتها لم يكن صوتا عاديا ففي صوتها شجن خاص جعلني أعشق هذا الأسلوب.

وقررت في يوم أن أذهب إلى صديق لي يدعى «حليم»، أخذت أتحدث معه عن تلك الفتاة وكيف كان حديثنا وطلب مني أن أعطيه رقمها فهو يعرف كيف يجذب الفتيات ويتحدث معهن، وطلب مني أن أمهله ٢٤ ساعة وسوف يعرف كل شيء.

في ذلك الوقت كنت مع صديقي الآخر؛ فهو من جعلني أتحدث مع هذه الفتاة وأخذنا نتسامر ثم قُلت له يا «علي» ما رأيك في الفتيات وبنات الإنترنت؟ بدأ يضحك كثيرا وعلمت منه أنهن غدّارت مخادعات وأنه قد تعرض لكثير من الغدر منهن.

استمعت إليه ولم أُرد أن أدافع عنهن وجلست معه حتى المساء وغادرت إلى منزلي حتى أنام فأنا مرهق ومتعب ولا أريد أن أتحدث مع أحد.
وبعد مرور ٢٤ ساعة وجدت صديقي «حليم» يرن على هاتفي وبدأ يتحدث معي عن تلك الفتاة.. بدأ يضحك كثيرا وكثيرا وطلبت منه أن يحدثني ولا يضحك فتنهد ثم قال:
- كان لازم أرن عليها وأقفل بحيث إنها تتصل عليَّ وده اللي حصل، بالفعل بدأت أرن وهي اتصلت.
- وإيه اللي حصل بعدها؟
بدأ يسرد لي ما حدث بأنها قالت إن هذا الرقم يرن عليها كثيرا وهي لا تعرفه وبدأ هو يحدثها عن أنه لا يعرف من هو صاحب الرقم ثم وجدها تسمع عبد الحليم حافظ، وبدأ يتحدث معها عن الأغاني العاطفية والبرامج العاطفية وبدأت هي الأخرى تحدثه، ومرت ساعتان على حديثهما ولم تعرف هي اسمه قط، وبعد أن أوشك الحديث أن ينتهي أخبرها بأنهما لم يتعرفا على بعضهما وعلى الفور أخبرته اسمها وهو الآخر قال اسمه الحقيقي «حليم» وبدآ يتحدثان حتى الصباح.
لم يكن رد فعلي غير الضحك الشديد، فكما توقعت أنها فتاة كالطير تذهب إلى كل مكان لا يهمها أي شيء ولا أي شخص، وقُلت لصديقي:
- كلمها كل يوم وخليك معاها لكن اوعى تقولها إنك صاحبي.
- ما تخافش أنا فاهم طبعا، أنا وانت هنفضل نكلمها لحد ما نعرف آخرها ونصدمها بالحقيقة.
- تمام، هو ده المطلوب.. عشان لو حاولت تلعب يبقى هي اللي حددت مصيرها.
بعد أن انتهيت من الحديث مع صديقي وجدت هاتفي يرن، إنها هي «هدير» بدأت أتحدث معها:
- يا صباح الخير.. إيه أخبارك؟

- صباح الخير.. أنا الحمد لله.. هو ينفع نتكلم شوية؟
- أكيد ينفع وليه لأ؟
- تمام.. أنا كنت عايزة أقولك حاجة بس ممكن تغمض عينك وتسمعني كويس؟
الشك بدأ يغزو عقلي، هل استشعرت بأي شيء أم أنها تريد أن تعترف؟ لا أعرف فقط سوف أُصغي إليها وأعرف ماذا أفعل.
بدأت تحدثني وصوتها به شجن أصبح واضحا والعشق يكاد يكون ملموسا، قالت لي:
- أنا عارفة إنك هتستغرب من كلامي ليك، لكن اللي هقوله حقيقة، من أول مرة اتكلمنا مع بعض أنا كنت سعيدة جدا ولما بدأ حديثنا يكون عن الحب مش عارفه إيه اللي حصل وقُلت لازم أتصل وأقول إني بحبك حتى لو قُلت إنك مش بتحبني بس أنا بحبك.
يا إلهي، ما هذه الفتاة الجامحة؟ كيف تقول لي عبارة الحب ولم يمر علينا الكثير؟ أتريد أن تلعب بقلبي؟ صوتها لا يوحي بذلك.. أنا لا أملك أي مشاعر حب تجاهها ولا أريد أن أجرحها، فربما يحدث لها أي شيء سأوافق على حبها وفي وقت لاحق سوف أرحل عنها بهدوء وتكون هي الأخرى قد عرفت أني لا أحبها.
مرت الأيام وكنا نتحدث كل يوم عن الحب والعشق، وكانت تحدثني عن أنها سوف تصبح زوجة رائعة وسوف تفعل كل ما أريده، أي شيء مهما كان وأنها تريد أن تعيش بهناء وسعادة.. كنت أسمعها ولا أصدقها فهي لا تعرف أن «حليم» هو الآخر يكلمها كل يوم، لكنها لم تعترف له بحبها.. وربما هذا ما جعلني أفكر هل هي تحبني وهذا هو طبعها أم أنها تحاول أن تحب هذا وتكون على صداقة قوية مع هذا؟ لا أعلم، سوف تثبت لي الأيام ما كنت أجهله.
وبعد أن مر شهران على تعرفنا وحديثنا وكان صديقي يعرّفني كل شيء

تقوله له رن هاتفي وأنا جالس معه، فتاة تدعى «هناء» نطقت باسمي على الرغم من أني لا أعرفها، بدأت تثني على أشعاري ولا أعرف كيف علمت بها؛ فأنا لا أنشرها في أي مكان.. ثم أخبرتني بأنها صديقة «هدير» وأنها أخذت الرقم من هاتفها وبدأت تحدثني عن صديقتها وطبعها وأنها دائما ما تتعرف على رجال عبر الإنترنت لكنها لم تقابل أحدا منهم قط، ثم بدأت تقول لي وفي صوتها تحذير: ارحل عن «هدير»؛ فمصيرك سوف يكون كغيرك من الرجال الذين عرفتهم وسوف ترحل هي عنك مهما كانت العلاقة.

لم أكن أهتم بكلامها؛ فأنا أعرف أنها تلعب، لكني لم أكن أعرف أنها تتحدث مع كل الرجال، وبعد أن سمعت هذا الكلام أخذنا نفكر وتوصلنا إلى أنه لا بد أن نعلن لتلك الفتاة المغرورة أننا صديقان ونشاهدها تتحطم؛ لأنها تريد اللعب بنا وليس كذلك، بل إني سوف أعطي رقمها لصديقي الذي بدأ يتحدث معها في أول مرة.

اتصل بها صديقي «حليم» من هاتفه وبدأ يتحدث معها كما لو أننا لا نعرف شيئا، وبعد أن بدأت تضحك معه أخذت الهاتف وتحدثت أنا:

- الكذب مهما كان ومهما طال لازم ينكشف.

لم ترد على كلامي، بل إنها أغلقت الهاتف ثم عاودت الاتصال على هاتفي..

- ليه بتقفلي هناك؟ أنا و«حليم» أصحاب، إيه رأيك؟

- أصحاب؟ يعني كل الفترة دي كنتم بتلعبوا بيَّ؟

- إحنا اللي برضه بنلعب بيكي؟ أنا عرفت إنك بتكلمي غيري، ولو عايزة أسماء أقولك.

- انت عرفت إزاي كل ده؟

- مش مهم إزاي بس أنا عرفت وخلاص وكان لازم تدفعي التمن.

- أدفع التمن؟ أنا قُلتلك إني بحبك وانت بترد ده بغلط؟

- غلط إيه؟! برضه بتكذبي؟ زي ما تحبي بس دي النهاية وكملي في طريقك.

- لا مش النهاية ولازم تدفع التمن غالي.
- طيب وريني إزاي هدفع التمن؟
أغلقت الهاتف ونظر إليَّ صديقي مبتسما وأخبرني بأن الأمر لا يستحق أي غضب، لكني لست غاضبا، أنا فقط لا أريد أن يحاول أحد أن يتلاعب بي، وسوف أعطي رقمها لصديقي الآخر.
بعد ساعات قليلة ذهبت إلى منزلي وأرسلت إلى صديقي رقم الفتاة وأخبرته أنه رقم تلك الفتاة التي كنا نتحدث معها عبر الشات وأنها تريد الحديث معه.
لم يتردد، على الفور أخذ الرقم كما لو أنه يبحث عن فريسة.. وبدأت علاقتي بتلك الفتاة تنقطع، ولم أكن أريد أن أعرف ماذا يفعل صديقي معها، بدأت في الاستعداد للدراسة الجديدة، فقد اقترب الموعد.

****

مرت أسابيع، وها هو أول أيام العودة للسجن مرة أخرى.. ذهبت إلى بيت «علي» حتى نذهب إلى المدرسة معا.. توجهنا معا إلى المدرسة، وأثناء ذهابنا بدأ يحدثني عن تلك الفتاة «هدير» وكيف هي علاقتهما ببعضهما البعض وأخبرني أنه قال لها إنه ذلك الشاب الذي كان يحدثها عبر الشات.
غبي غبي غبي.. لا يعرف أنها تريد الانتقام مني وأنا لم أخبره بأني كنت أحدثها وبدأت هي تحبني.. أعتقد أنها سوف تنتقم منه وتحاول أن تتوصل إليَّ من خلاله وهو ليس لديه القدرة على مراوغتها.
أخذ يتغزل في صوتها وأخبرني بأن ثلاثة من أصدقائنا قد أخذوا رقمها وأنها لم تشعر.
يا إلهي ماذا فعلت بهم؟ إنها ليست غبية لهذه الدرجة، سوف تعتقد أني قمت بتوزيع رقمها عليهم جميعا وستحاول أن تنتقم منهم جميعا وفي

النهاية سوف تحدثهم عني.. لم يعد في يدي أي شيء سوى الانتظار والنظر للكارثة.

وُجدنا في المدرسة والتقيت كل الأصدقاء وبدأوا يتحدثون أمامي عن تلك الفتاة وكل منهم يقول ماذا حدث معها وأنا أسمعهم ولا أحاول أن أتفوه بأي كلمة على الرغم من أن «علي» قد أخبرهم بأننا كنا نتحدث معها عبر الشات وبدأوا يسألونني عنها، لكني لم أجب وأخبرتهم بأني لا أريد أن أتحدث عنها؛ فنحن لدينا دراسة ولا أستطيع أن أشغل عقلي بأي شيء.

تركتهم وهم يتحدثون وأخذت أنا أهتم بدراستي، وفي نهاية اليوم أذهب إلى بيتي برفقة صديقي.

وفي يوم كانت السعادة على وجهي، وجدت صديقي حزينا ويمسك هاتفه وعلى وجهه الغضب، بدأت أتحدث معه:

- إيه مالك مش عادتك؟

- أبدا، فاكر البنت «هدير»؟

- ياه، انت لسه بتكلمها؟

- آه لسه بكلمها، وعملت حركة مش حلوة.

- عملت إيه؟

- أنا عرفت إنها عرفت إني أنا وهما كلنا أصحاب وبدأت تفرقنا عن بعض، وفيه منهم بدأ فعلا إنه يسمع كلامها وأنا مش عارف هي بتعمل كده ليه.

- وانت هتعمل إيه معاها؟

- مش عارف، بس قلبي مستريح لها أوي وأنا عايز أقابلها وكلنا عايزين كده، بس هي مش بتقابل حد خالص.

- آه طبيعي.. هي مش هتقابل حد غير واحد بس.

- فعلا؟! طيب ما تقولي مين الشخص ده أهو نتعرف عليه ونعرف منه كل حاجة.

- الشخص ده.. أنا.

- إيه؟! إزاي؟ انت مش كنت مش بتكلمها؟

- لا كنت بكلمها سابقا واللي ما تعرفهوش إنها بتحبني وهي دلوقتي بتنتقم لأني ما حبتهاش وخليت صاحبنا «حليم» يمثل عليها الدور وكل ده ما حدش يعرفه.

- عشان كده هي كانت بتسأل عن إن حد فينا شاعر أو صديق لينا شاعر.

- طبيعي ومتوقع بس اسمع مني انساها.

- حاضر هحاول، بس أشوف النهاية.

لقد حلت الكارثة كما توقعت وأنا أعرف أنهم لن يستطيعوا مقاومة روعتها وصوتها وأسلوبها وأنا ليس في يدي أي شيء أفعله غير مشاهدتهم يحترقون من نار غضبها، وهي لن تهدأ حتى تجعلني أشاهدهم يتساقطون الواحد تلو الآخر، ظنا منها أني سوف أحزن لأنهم أفضل الأصدقاء.

مسكينة هذه الفتاة؛ فكل هؤلاء مهما فعلت بهم لن أحزن فهم يستحقون، من أراد أن يخوض في بحر الموتى فعليه أن يتحمل نتيجة أفعاله.. سوف أشاهد هذا العرض ولن أعطيها ما تريده وأنا أعرف أنها ستحاول مقابلتي والتحدث معي، لكن سوف تفاجأ بأني لن أُعير لهذا الأمر أي اهتمام.

لوحة الجنون

حدث منذ زمن قريب انفجار عند كوبري جامعة القاهرة، وكنت مراسلا للكثير من القنوات والجرائد المصرية والعربية والعالمية، كنت أتقاضى راتبا يجعلني ملك الزمان وكنت أضع أغلب راتبي في بنك حتى إذا أردت شيئا بدأت في السحب.

كما قُلت كنت مراسلا بارعا وكان اسمي شهيرا أكثر من مقدمي البرامج، وفي ليلة كنت أغطي أحداث مظاهرات مؤيدة للرئيس بالقرب من كوبري جامعة القاهرة، وأثناء تغطيتي للأحداث بدأ الكوبري يهتز وحدث انفجار رهيب علم الكثير بعد ذلك أنها عملية مدبرة من قِبل الجماعات الإرهابية، وكنت أنا من ضحايا هذا الانفجار، فقد كُسرت ساقي اليسرى، فقد كنت على هذا الكوبري أثناء الانفجار، ومن حينها لم أعد مراسلا لأي قناة أو جريدة، فقط أقوم بكتابة مقالات لمجموعة من الجرائد المصرية وتحليلات سياسية تجلب لي المال الوفير بجوار العائد من البنك، ما يجعلني أعيش في سلام.

ولم يكن لديَّ أي شيء يجعلني أعشق الحياة أكثر من اللوحات القديمة التي خلفها أسرار وقصص تُحكى.. أعلم أن القصص هذه غير حقيقية، لكني أشعر بالمتعة عند النظر إليها، خاصة أن من يرسم هذا الإبداع يشعرك بأن اللوحة

كائن حي يشعر بك.

وفي يوم اتصل بي صديق كان يعمل في قسم الحوادث بإحدى الجرائد وأخبرني أن هناك حالة من الصراع والجنون وقتل النفس بسبب أعمال فنان يرسم صورا خاصة بنساء وبعد أن يشتري الشخص هذه اللوحة إما أن يصاب بالجنون وإما يقتل نفسه.

بدت على وجهي علامات الاندهاش، كيف يعقل هذا؟ ولم أنتظر فقُلت لصاحبي أن يأخذني إلى هذا الرجل على الفور فلا أستطيع أن أنتظر، سألني صاحبي ماذا أريد من مقابلته، لم أخبره حتى لا يمنعني من الذهاب وأخبرته بأني سوف أطلعه على كل شيء فور وصولنا.

بعد قليل قابلت صديقي وأخذني إلى متجر الرجل، اكتشفت أنه بالقرب من منزلي.. بدأت أتعرف على الفنان الذي لديه لوحات رائعة لفتيات، منهن المحجبات وغيرهن، لا أستطيع أن أصف ما يفعله إلا أنه يجسد أشخاصا كما لو أنهم حقيقيون، لا أعتقد أنها رسوم من الخيال، من الصعب أن أصدق أن هذا الإبداع فقط رسم من الخيال.

تحدثت مع صاحب المتجر وأخبرته بأني أريد لوحة، واندهش صديقي من طلبي هذا.. وبدأ يضغط على يدي ولاحظ صاحب المتجر ما يفعله صديقي وبدأ في الضحك قليلا ثم أخبرني بألا مانع عنده بشرط أن أوقع على عقد بأني أتحمل ما سوف يحدث وأنه غير مسئول عن أي شيء ولا يجوز رجوع هذه اللوحة إليه مهما حدث.

وافقت على الفور.. فأنا لا يهمني أي شيء؛ فقد شاهدت الكثير من العجب عندما كنت مراسلا.. دفعت ثمن اللوحة، مائة جنيه، ليس بالثمن الباهظ على الرغم من أن رسمته تقدَّر بالملايين، فأنا لم أرَ أي لوحة مثل هذه من قبلُ، فتاة يوحي رسمها بأنها في الثلاثين من عمرها، بيضاء، شعرها أسود وبه خصل حمراء.. يشع من وجهها النور، لا أعلم كيف تبتسم كما لو أن حبيب عمرها جاء ليطلب يدها.

وصلت إلى منزلي ومعي صديقي وهو مندهش، تحدث معي:
- ما تفعله خطير جدا.. هذا الرجل لوحاته بها سر وهو لا يريد أن يكشفه.
- إذا كان كذلك فلا بد أن أسير في هذا الطريق وسوف أعرف الحقيقة أو أكون مثلهم ولن يعرف الحقيقة أحد.
لم يستطع صديقي أن يفعل أي شيء، فأنا عنيد ولا يستطيع أحد أن يقنعني بشيء إلا كما أريد.
وضعت اللوحة في غرفتي وحتى أكون بأمان في أول يوم دعوت أصدقائي الذين لم أقابلهم منذ مدة للسهر معي والجلوس هذه الليلة كي نعيد ذكريات الماضي.
ذهبت إلى النوم فهم قادمون الساعة العاشرة مساءً.. خلدت إلى النوم وبدأ الوقت يمر حتى جاء الوقت واستقبلت أصدقائي وكنا نمرح معا ونحكي لبعضنا البعض ما كنا نفعله ونحن صغار، وأخذنا نسترجع الذكريات حتى أصبحت الساعة الثانية بعد منتصف الليل.. طلب أحد الأصدقاء أن يذهب إلى النوم في غرفتي ولم أمانع.
ذهب صديقي إلى الغرفة، وجد باب الغرفة مفتوحا بزاوية حادة وداخل الغرفة جسد حزين، بدأ يفتح الباب ببطء حتى وجد أنها لوحة لفتاة حزينة ودموع تتساقط منها كما لو أنها حقيقية.. بدأ في مناداة الجميع ويعلو صوته، ثم ذهبنا جميعا إليه وأنا أشعر بأن هناك شيئا غريبا سوف يقوله.
بدأ يضع إصبعه في اتجاه الصورة ويخبرنا بأن هذه الصورة لو دققنا النظر إليها سنجدها كما لو أنها حقيقية والعجيب أنها تبكي وكما لو أنه بكاء حقيقي.
نظرت إلى اللوحة بكل دهشة.. لقد كانت في الصباح سعيدة، أكان الصباح غير حقيقي أم أن هذا هو ما قاله لي صديقي بأن هذه الرسومات بها سر غريب من الصعب أن يعرفه أحد؟

أخبرت صديقي بأن هذه لوحة اشتريتها من رسام مبدع يجيد الرسم جيدا وأن هذه رسمة كغيرها من الرسومات، كل ما في الأمر أن هذه الصورة تم تجسيدها ورسمها بواسطة مبدع، أخفيت الحقيقة عليهم حتى لا يصابوا بفزع أو دهشة، فأنا لا أعرف رد فعلهم ولا أريد أن يرحلوا، فأنا كنت أريد أن أعرف ماذا سوف يحدث وهم معي وسوف أجرب وهم ليسوا معي.

قضينا الليلة حتى الصباح ورحل كلٌّ منهم إلى منزله وبدأت في وضع كل شيء مكانه، لكن جسدي كان منهكا، فلم أقدر على أكل شيء فوضعت جسدي على السرير فإذا بالنوم يهبط عليَّ سريعا، استغرقت في النوم فترة طويلة ونظرت إلى ساعتي، إنها الثانية عشرة منتصف الليل.

سوف أقوم لإعادة كل شيء إلى مكانه، ففي الصباح لم أستطع، الآن سوف أفعل ذلك وسوف أشاهد أي برنامج وأنا أقوم بذلك، ذهبت إلى الصالة وجدت كل شيء مرتبا كما لو أنه لم يكن هناك أصدقاء في الشقة.

كل شيء في مكانه، بل إن الطعام أصبح جاهزا، فقط ينتظر أحدا أن يأكله.. أصبح الشك يقينا، هذه الرسمة ليست مجرد رسمة بل بها سر ما، ذهبت إلى غرفتي كي أعرف سر هذه اللوحة وإذا بي أجدها تنظر إلي كما لو أنها تبتسم بغمازتين ووجدت أن عينها تكاد تنطق اسمي وتريد مني أن أقترب.

لا أستطيع أن أقول إنني كنت شجاعا؛ فالخوف كان داخلي، لكني لا أستطيع أن أفقد أعصابي، فإذا حدث لا أعرف ماذا سوف يحدث، أغلقت الغرفة على هذه اللوحة وكنت أنتظر الصباح حتى أذهب إلى هذا الرجل كي أعرف حقيقة اللوحة.

جلست في الشرفة أنظر إلى منظر النيل، ما أروعه، فهو ليلا تشعر كما لو أنه يخاطبك، وبعد ثوان قليلة شاهدت فتاة ترسل إليَّ إشارات السلام ورددت إليها هذه الإشارات وبدأت تنادي باسمي: «ياسين.. ياسين.. ياسين».. قمت من على الكرسي، كيف عرفت اسمي؟ بدأت أدقق في ملامحها، لكني لا

أستطيع، فلا رؤية جيدة؛ فالظلام هو المسيطر حتى الآن وبعد أن يئست الفتاة من النطق باسمي وأني لا أفعل أي شيء آخر وجدتها تعبر الطريق وبعد ثوانٍ اختفت كما لو أنها شبح.

وسمعت صوتا صادرا من غرفتي، بدأت أردد القرآن بداخلي وفتحت باب الغرفة وجدت الصورة قد وقعت من تلقاء نفسها على الأرض ورفعتها في مستوى بصري وجدت الرسمة قد تحولت من مبتسمة إلى غاضبة وعلى جبينها قطرات دم.

بدأ جسدي يرتعش، لا أعرف ماذا أفعل، هل أصرخ كما تصرخ المرأة أم أحاول أن أكون طبيعيا حتى لا يحدث أي مكروه؟ فحتى الآن لا أستطيع فعل شيء، فأنا لا أعرف حقيقة هذه اللوحة.

تركت اللوحة على الأرض ووضعت عليها كرسيا مصنوعا من الخشب حتى لا تستطيع أن تتحرك مرة أخرى، وجلست في الشرفة حتى الصباح، لكن النوم قد غلبني وأخذت أشرع في النوم والحمد لله أنه قد جاء فهو الشيء الوحيد الذي يجعلني لا أفكر في أي شيء.

جاء الصباح وأنا أتذكر ما حدث بالأمس، وأجمل ما في الصباح أن شقتي تغزوها الشمس من كل جانب كما أني قمت بفتح التليفزيون مستمعا للقرآن الكريم، وذهبت إلى الغرفة وجدت الصورة معلقة كما هي من دون أي خدوش تُذكر والابتسامة على وجهها!!

لم أتحرك خطوة واحدة.. وعلى خاطري سؤال واحد: ماذا يحدث؟ وما يخبَّأ لي من هذه الرسمة؟ نصف ساعة مضت وأنا أنظر إليها وهي لا تتحرك أو تتكلم فلو تكلمت على الأقل سوف أعرف الحقيقة مهما كانت؛ فموت اليوم خير من موت كل يوم.

لكني لا أستطيع أن أحتمل كل هذا، فأنا ذاهب إلى هذا الرجل وسوف أصطحب معي هذه الصورة.. أخذتها إلى عربتي وتوجهت إليه وتوعدت بأن أضربه لأنه لم يقل لي الحقيقة.

وبعد أن دخلت متجره وبدأت أنادي عليه.. بدأت أسمع أصوات ضحك وبكاء وفتيات يتغزلن وصوت مياه جارية مع أن المكان لا يوجد به غير صاحبه، زاد خوفي أكثر وأكثر فأنا أشعر بأني في قلعة الموت ويحكمها «دراكولا».

بدأ صوت أقدام في اتجاهي، نظرت جيدا وظهر الرجل صاحب المتجر وهو على وجهه ابتسامة تعلو نصف وجهه الأيمن فنظرت ولم أجرؤ أن أتوجه إليه بأي حديث وليس ضربا كما عهدت.

وبدأ الرجل في الحديث معي قائلا:

- هل تود أن تشاركني اليوم في ترتيب رسوماتي ووضعها مكانها وأنا سوف أخبرك سرا في نهاية اليوم؟

لم أكن أستطيع أن أرفض هذا العرض أبدا؛ فأنا أعتقد أنه قد فهم ما أريد أن أقوله، فرددت عليه:

- موافق.

بدأنا في ترتيب المتجر؛ فعشش الخفافيش قد وجدت مكانا لها والعناكب قد رحلت من كل الأماكن وجلست في هذا المتجر، كما أن الأتربة أصبحت طبقات فوق طبقات.

أخذنا نرتب المتجر حتى أصبح مظهره رائعا والرسومات أصبحت أكثر ظهورا وبدأت أرى إبداعه بعين دقيقة، كل لوحاته تجعلك في اشتياق ويزداد داخلك إلى أن تجد أن الحب بدأ يغزو قلبك من خلال النظر للّوحة. وبدأ المساء يأتي شيئا فشيئا وأنا أعرف أن في المساء اللوحة التي معي تبدأ في ترويعي، فماذا سوف يحدث بين كل هذه الرسومات؟

قام الرجل بأخذ الصورة التي معي ووضعها في مكانها المخصص لها وكنت مندهشا مما فعله، فهو قال لي إن الصورة لن يأخذها وأنا متحمل النتائج، وقام بإمساك يدي واصطحبني معه إلى شرفته كي نحتسي قليلا من الشاي. ذهبت معه، فأنا لا أستطيع أن أترك الأمر هكذا، فعندما أخذ مني هذه

الصورة بدأت أشعر بالضيق على الرغم من الخوف الذي كان ينتابني منها، أخذ الرجل يتحدث عن الحياة والمتاعب وكيف يواجه يومه، خاصة عندما يرسم رسوماته هذه، وأنه يقوم كل يوم ليرسم رسمة جديدة فيأخذ الكثير من الوقت.

مضى وقت طويل والرجل بدأ يتحدث في حديث لا يعني لي شيئا، فأنا أريد أن أعرف شيئا واحدا ومن الواضح أن هذا لن يحدث.

وقررت أن أقاطعه وأطلب منه الرحيل، إلى أن بدأ يتحدث عن فكرة لوحته، وحينها بدأت أسمعه بشدة.. بدأ يسرد لي أنه يقوم برسم شخصيات حقيقية، لا يعرفها أحد إلا من عاشر هذه الشخصيات، وهم قليلون جدا؛ لذلك أنا أبيع كل يوم لوحات كثيرة تعجب المحبين للرسومات، لكن بعد فترة أعرف أنهم قد حدث لهم مكروه، على الرغم من أني قد أنذرتهم وقُلت لهم بأن أي مسئولية لست أنا من أتحملها وإنما هم.

وبعد حديث الرجل هذا دفعني إلى سؤاله:

- وما سر لوحتي التي أخذتها وقمت أنت بتعليقها؟

ضحك الرجل قليلا ثم نظر إليّ مبتسما:

- لو يضايقك أن لوحتك معلقة أستطيع أن أعطيها لك مرة أخرى، لكن حينها سوف يحدث كما حدث لك ليلة أمس، وأعتقد أنك لا تريد أن يحدث هذا، خاصة أنك لا تعرف شيئا عنها.

- إذًا أنت تعرف ماذا يحل بمن يشتري كل لوحة من لوحاتك وتصر على أن تتركنا هكذا؟

- نعم أعرف، لكن أنت من أقرّ بأنه متحمل كل المسئولية، لم أقل لك رجاءً اشترِ لوحتي بل أنت من جئت لشرائها.. أنت تريد أن تعرف حقيقة اللوحة أم تريد الرحيل؟

- بالتأكيد أريد أن أعرف القصة كاملة.

- اللوحة التي قمتَ باختيارها قصتها أنا شاهدتها أمام عيني، فتاة في سن

الثلاثين، كانت زهرة صغيرة، الكل يتمنى أن تنطق بحروف اسمه، وكان لديها حبيب قرر أن يتزوجها وقد وافقت وتم تحديد الموعد.. وفي يوم فرحها كان من تحبه قد رحل بعيدا عنها يجلس مع أصدقائه للعب والشرب فقط، وقررت أن تذهب إلى الشقة التي يحدث فيها هذا، وعندما طرقت الباب سمعت أصوات نساء كثيرات يضحكن، زاد غضبها وبدأت تطرق الباب مرات ومرات حتى فتح من سيصبح زوجها فوجدته في حالة سُكر وبدأ ينظر إليها وهي تعاتبه وهو لا يعي ماذا يحدث حتى نظر إليها أصدقاؤه وقام بإدخالها إلى الشقة رغما عنها وبدأ ما لا يمكن أن يتوقعه أحد.

بدأ الرجل يصمت وأنا أنظر إليه وعلى وجهه دموع وأنا لا أعرف ماذا أفعل، وضعت يدي على كتفه:

- أكمل القصة حتى نهايتها، فالماضي مؤلم قليلا ونحن نتعلم من هذا الماضي.

أخذ الرجل يسرد لي بعد بكاء قصير وأخبرني أن هذا المدعو حبيبها قام هو بالتعدي عليها جسديا وكانت تعلو ضحكات النساء، وأصدقاؤه يقومون بمسك أطراف جسدها كي يفعل هذا الذئب البشري ما يحلو له، وبعد أن أخذ منها كل شيء بدأت تنهار بكاء وهم يضحكون ولا أحد يعي ما يحدث، ووجدت على المنضدة مسدسا، وكانت ماهرة في الصيد؛ فقد علمها والدها الصيد جيدا، وأخذت المسدس وبدأت في قتل أصدقائه، لكنها توقفت عنده ولم تستطع أن تقوم بإطلاق النار، لا تعرف ما الذي أوقفها.. وبعد ذلك أخذتها الشرطة للحكم عليها بالإعدام؛ فهي لم تحكِ للقاضي ما حدث وهو لم يظهر حينها.

وضعت يدي على كتف الرجل وهو متأثر وبدأت أسأله: كيف عرفت هذه القصة؟

أخبرني بكل حزن كما لو أنه يكتم سرا لقرون وعقودٍ من الزمان بأن هذه الفتاة هي ابنته ولم يكن لديه غيرها في الحياة.. قطرات من الدموع بدأت

تتساقط.
نظر إليَّ الرجل وقال لي وهو يكاد يبتسم:
- أغلب لوحاتي هذه تعبر عن قصة حقيقية، والصورة التي قمت بأخذها هي صورة لابنتي الغالية وأنا أعرف أنها في المساء تبتسم إذا شاهدت شخصا يرق له قلبها وتحزن إذا رحل هذا الشخص عنها، فهذا هو سر هذه الصورة، خاصة أنها أعجبت بك ولو كنت غير ذلك لدفعتك إلى الجنون أو الانتحار.
بدأ على وجهي الحيرة والابتسامة، فأول شخصٍ أرتاح إليه بهذه الدرجة لوحة من الصعب أن ترجع بجسدها الحقيقي فهي كما قال الرجل تم إعدامها، ونظرت إلى الرجل:
- كنت بالأمس أريد أن أدق عنقك وأبرحك ضربا؛ فقد كنت خائفا من هذه اللوحة.. أنت لا تعرف كيف عشت بالأمس معها، لكني الآن سأظل أحتفظ بها مدى الحياة، وربما هذا هو قدري وهذا ما أريده حقا.
أعطاني الرجل اللوحة وودعته بكل هدوء.. أخذت لوحتي معي وأنا سعيد.. ربما أوحي بأني مجنون، فأنا أعيش مع لوحة لديها قليل من الحياة.. لكني سعيد فقلبي يدفعني إليها بجنون.
بدأت آخذ لوحتي وأعلقها في الشرفة، وكل يومٍ في المساء أتحدث معها كالمجانين، وإذا أعجبت بحديثي ظهر عليها علامات الفرح، وإذا لم أُظهر لها الحب بدا عليها الحزن وتتساقط دموعها.
أعلم أني بهذا أكون في نظر الكثيرين قد جُننت، لكن أليس هذا هو الحب الحقيقي؟ ربما توحي أفعالنا بالجنون لكن يكفي أننا نعيش براحة.

V.

نبذة عن المؤلف

الاسم الحقيقي : أحمد طه
اسم الشهرة : فارس أحمد طه

طالب بكلية الإعلام جامعة القاهرة
ويعمل ككاتب ومحرر صحفي

الأعمال الأدبية السابقة :

- القاتل الصغير - رواية

الصفحة الخاصة بالمجموعة القصصية «حنين» عبر «فيس بوك»:
https://www.facebook.com/7anenBook

المحتويات

قبل أن تقرأ
حنين
أسمَّيتها «نانا»
أسرار الجامعة
لم أكن أحبها فهي...
لوحة الجنون